الباب الثاني

علاقة المطالع بالمقاصد
في السور المفتتحة بحروف التهجي

- الفصل الأول : سورة البقرة .
- الفصل الثاني : سورة آل عمران .
- الفصل الثالث : سورة الأعراف .
- الفصل الرابع : سورة يونس .
- الفصل الخامس : سورة هود .
- الفصل السادس : سورة يوسف .
- الفصل السابع : سورة الرعد .
- الفصل الثامن : سورة إبراهيم .
- الفصل التاسع : سورة الحجر .
- الفصل العاشر : سورة مريم .
- الفصل الحادي عشر : سورة طه .

الفصل الأول

سورة البقرة

يأتى كلامنا في هذه السورة الكريمة إشارات مستخرجة مما ذكره الأئمة في بعض مواضع منها ، ولن نقف إلا عند بعض تراكيب منها ، لأنها أطول سور القرآن قاطبة وهي المسماة الفسطاط .

وقد افتتحت السورة الكريمة بالحروف المقطعة ، والأمر الذي ارتضاه العلامة جار الله الزمخشري ، والمبرد ، واختاره جمع عظيم من المحققين ، أن الله تعالى إنما ذكرها احتجاجا على الكفار ، وذلك أن الرسول ﷺ لما تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن ، أو بعشر سور ، أو بسورة واحدة ، فعجزوا عنه ، أنزلت هذه الحروف ، تنبيها على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف ، وأنتم قادرون عليها ، وعارفون بقوانين الفصاحة[1] ، وكما تعددت الآيات التي صرحت بالتحدي ، تعددت الافتتاحات المتحدى بها ، وكلامنا يأتي استخراجا مما حدد لها العلماء من مقاصد .

---

(١) الكشاف ٩٦/١، ٩٧ ، ومفاتيح الغيب ٣٦١/١ ، وقد تكلمنا على هذه المسألة في ص ٣٩ من هذا البحث .

وقد تناول العلامة محمد عبد الله دراز في كتابه النبأ العظيم سورة البقرة، وذكر :

« أنها على طولها تتألف وحدتها من مقدمة ، وأربعة مقاصد وخاتمة :

المقدمة : في التعريف بشأن هذا القرآن (من أولها إلى الآية ٢١) .

المقصد الأول : في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام (٢١-٢٥) .

المقصد الثاني : في دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم ، والدخول في هذا الدين الحق (٤٠-١٦٢) .

المقصد الثالث : في عرض شرائع هذا الدين تفصيلا (١٧٨-٢٨٣) .

المقصد الرابع : ذكر الوازع ، والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعصم عن مخالفتها (٢٨٤) .

الخاتمة : في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد، وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم (٢٨٥-٢٨٦) وما سقط من الأرقام فهو مداخل .

وقد بين السلك الذي انتظم هذه المعاني ، والمقدمة عنده تمتد إلى عشرين آية من أول السورة إلى قوله تعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ** ﴾ (البقرة:٢١).

وهذه المقدمة تمثل عندنا مطلع السورة الكريمة ، والمقاصد التي ذكرها تدخل ضمن هذه المقدمة ، ويمكن أن يجمع هذه المقاصد جميعا مقصد واحد هو ـ فيما أرى ـ التعريف بالقرآن ، وموقف الناس منه ، والدعوة إلى اتباعه مرتضيا في ذلك كلام برهان الدين البقاعي ـ رحمه الله ـ في نظم الدرر .

« وإن شئت قلت : مقصود هذه السورة وصف الكتاب فقط ، وما عدا ذلك فتوابع ولوازم »[1].

---

(١) نظم الدرر ١/٧٨ .

مع ضميمة ما ذكره في مصاعد النظر في بيان مقصود هذه السورة «والمقصود من هذه السورة : إقامة الدليل على أن الكتاب هدى ليتبع في كل حال ، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب ، ومجمعه الإيمان بالآخرة ، ومداره الإيمان بالبعث الذي أعربت عنه قصة البقرة التي مدارها الإيمان بالغيب ، فلذلك سميت بها السورة ، وكانت بذلك أحق من قصة إبراهيم عليه السلام لأنها في نوع البشر ، ومما تقدم في قصة بنى إسرائيل من الإحياء بعد الإماته بالصعق ، وكذا ما شاكلها ، لأن الإحياء في قصة البقرة عن سبب ضعيف في الظاهر ، بمباشرة من كان من آحاد الناس ، فهي أدل على القدرة ، ولا سيما وقد أتبعت بوصف القلوب بالحجارة بما عم المهتدين بالكتاب والضالين . . وسميت بالزهراء ، لإيجابها إسفار الوجوه في يوم الجزاء لمن آمن بالغيب . . . وبالسنام لأنه ليس في الإيمان بالغيب بعد التوحيد الذي هو الأساس الذي ينبني عليه كل خير .

وبهذا علم أيضا سر التسمية بالذروة ، وبالفسطاط ، والفسطاط : هو الخيمة والمدينة والجماعة ، ولا شك أن الكتاب من الدين بتلك المنزلة ، ولا سيما وفي سورته الدعائم الخمس الخطيرة ، وهو الجهاد وغير ذلك[1].

ولنا عدة استنباطات نرجح بها ما ذكره البقاعي ـ رحمه الله ـ أولها في تركيب بداية مطلع هذه السور ، فمن توابع الكتاب الإيمان بالغيب ، ومدار الإيمان بالغيب البعث ، كما ذكر ـ رحمه الله ـ فقد جاء الحديث عن الكتاب في ثلاث جمل ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ ، ﴿ لَا رَيْبَ ﴾ ، ﴿ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ فهو الكتاب الموصوف بالكمال ، ونفي الريب عنه في مطلع السورة يتناسب مع ما اختصت به هذه السورة الكريمة من الاستدلال

(١) مصاعد النظر ٢/٩، ١٠ .

للبعث والجملة الثالثة تتناسب مع ما اشتملت عليه السورة من بيان أحكام الشريعة من (الجهاد والطهارة والحيض والصلاة والقبلة ، وطهارة المكان ، وصلاة الجماعة وصلاة الخوف وصلاة الجمع والزكاة والاعتكاف وأنواع الصدقات والبيع والإجارة والميراث والوصية والوديعة والدين والنكاح والخلع والشهادات والربا . . .) .

وهذه اللام الجارة التي في قوله : ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ « هي المعبرة السرية التي انزلق عليها الكلام ، وانصب انصبابا واحدا إلى نهاية الحديث عن المؤمنين »[1] ، ثم جاء الحديث عن صفات المتقين مع مراعاة أن النظم الكريم لم يكن : للمتقين المؤمنين بالغيب والمقيمين الصلاة . . . ويكون هذا الكلام المغسول أدخل في باب الإيجاز ، لكن الوصف جاء بالاسم الموصول ، لأن الإبهام يحتاج إلى إيضاح الذي هو جماعة الصلة والتى جاءت فعلية فعلها مضارع ومجيء الجملة بهذه الهيئة يدل على التجدد والحدوث ، وملحظ مهم أيضا في هذا التركيب فقد جاء الإيمان بالغيب هاهنا أول وصف للمتقين ، ولم يأت هذا المعنى بهذا النمط في القرآن ، فكأن تفرد السورة في مطلعها من حيث تركيبه إشارة إلى تفرد مقاصدها ، وتتفرد التراكيب بخصائص تبعا لتفرد المقاصد .

وكان مما ساق الله إلينا استنباطا من كلام العلماء ، أن تركيب جملة الإيمان بالغيب بالفعل المضارع ، إشارة إلى اشتمال السورة الكريمة على استدلالات متعددة بعضها كان ، وبعضها يتجدد وكلها تتآزر في نفي الريب عن البعث .

---

(١) النبأ العظيم ص١٦٥ .

فالبعث أمر غيبي ، والإيمان بالغيب أول صفة للمتقين كما أنبأ بذلك مطلع السورة الكريمة ولما كانت الملائكة أقرب مخلوقات الله ـ سبحانه ـ معرفة به ، وكان تقربهم إلى الله داعية التعرف على أمر الغيب نفى الله عنهم هذه الصفة فيما ذكر من قصة آدم .

وقصة آدم على كثرة ورودها في الذكر الحكيم لم ترد بهذا النمط الذي آذن من أول إيراد القصة باختصاص الله بالغيب يقول ـ سبحانه ـ : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ (البقرة:٣٠) وترقى الأسلوب في نفى علم الغيب عن أقرب مخلوقاته إليه فقال : ﴿ **وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾ (البقرة:٣٠-٣٣).

فأجرى الأسلوب على ريبهم في اختصاص الله بالغيب مع تقربهم من الله وكأن ذلك جاء تفسيرا لتقديم الإيمان بالغيب على أركان الإيمان في مطلع السورة الكريمة ، ولعل اليهود هم أكثر الناس ريبة في أمر البعث الذي هو مدار الإيمان بالغيب لذلك فقد خصهم الله بأدلة على البعث ، خص بها هذه السورة الكريمة أولها قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ (البقرة:٥٥،٥٦) ولا أدعى إلى اليقين بالبعث من أن يموت الإنسان ويحييه الله ، وقد ذكروا أن القائلين

«هم السبعون الذين اختارهم موسى»[1] فكأن هذا المشهد اليقيني على البعث لم يره بقية اليهود ، فأجرى الله بعثا بعد ذلك شاهده اليهود ، بفعل بسيط من البشر ، فكان إيراد قصة البقرة التي هي من خصوصيات هذه السورة الكريمة تناسبا مع المطلع الذي تقدم فيه الإيمان بالغيب .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فكانوا أحق ـ بعد هذا الاستدلال أن توصف قلوبهم بأنها أشد قسوة من الحجارة .

وأمر آخر يفسره مطلع السورة الكريمة وهو اختصاص هذه السورة بقصة هاروت وماروت ، والسحر من أنواعه ادعاء معرفة الغيب ، وقد كان شائعا في اليهود ، وجاء في تراكيب هذه القصة ما يبين أن السحر يتوصل إلى معرفته بالتعلم ، أما علم الغيب فمما لا سبيل إلى تعلمه قال تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ . . .﴾ (البقرة:١٠٢)، وهو في النظم كما ترى يكرر لفظ التعلم دفعا لادعاء السحرة ـ الذين كثروا في اليهود ـ معرفة الغيب الذي مداره الإيمان بالبعث ناهيك بادعاء الكهنة ، معرفة الآجال ومواقيت انتهائها .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤٤٣/١ .

ثم تختص هذه السورة بحادثة تحويل القبلة التي منها خفاء الحكمة في تحويل القبلة ، ولولا أن الله ذكرها ما عرفها المسلمون حيث قال :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ (البقرة:١٤٣) فوجه الحكمة في تشريع الشرائع أمر غيبي .

ومن الاستدلالات على البعث مما خصت به هذه السورة قوله تعالى :

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة:٢٤٣).

وقد ذكر المفسرون أنهم « كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارا من الطاعون ، وقالوا : نأتي أرضا ليس بها موت ، فأماتهم الله ـ تعالى ـ فمر بهم نبي فدعا الله ـ تعالى ـ فأحياهم ، وقيل : إنهم ماتوا ثمانية أيام وقيل : سبعة »[1] وذكروا غير ذلك ، وقد جاءت هذه القصة في مساق الأمر بالجهاد في سبيل الله ، وهذه القصة تشابه من بعض الوجوه قصة قوم موسى الذين أخذتهم الصاعقة ، إلا أنهم لما كانوا فارين من الموت هاهنا ، صاغ النظم الكريم قصة موتهم بما يفيد أنهم امتثلوا لأمر الله ، وكأن سهولة الموت عند الله كما قال : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس:٨٢).

ورحم الله الزمخشري فقد قال في هذه الآية : « فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ﴾ قلت : معناه فأماتهم ، وإنما جيء به على هذه

(١) مفاتيح الغيب ٤٧٤/٣، ٤٧٥، والجامع لأحكام القرآن ١١٤٢/١، ١١٤٣، وتفسير ابن كثير ٢٩٨/١، والكشاف ٣٧٧/١ .

العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته ، وتلك ميتة خارجة عن العادة ، كأنهم أمروا بشيء فامتثلوا امتثالا من غير إباء ولا توقف»[1] وهذه القصة مع الإتيان بها للحث على الجهاد في سبيل الله ، إلا أنه لا يمنع من أن تكون للاستدلال على البعث الذي هو مدار الإيمان بالغيب بجوار أخريات القصص السابقة .

ولعل مطلع السورة أيضا يفسر لنا سر اختصاصها بمحاجة إبراهيم عليه السلام الملك ، بنسبة الإحياء والإماته إلى الله وتفرده ـ سبحانه ـ بهما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ... ﴾ (البقرة:٢٥٨).

فنقله إبراهيم عليه السلام إلى موضع لا سبيل إلى المجادلة فيه ، فإذا ثبت الثاني لله ، ثبت له الأول .

ومن الاستدلالات للبعث مما خصت به هذه السورة الكريمة قصة الرجل الذي مر على قرية ، فداخله الريب في أمر البعث لما رأى من خواء عروشها ، وهذا الريب يتجدد لكثير من الناس قال تعالى :

﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

(١) الكشاف ٣٧٧/١، ٣٧٨ .

﴿قَدِيرٌ﴾ (البقرة:٢٥٩) ولنا أن نقارن بين مغزى هذه القصة وبين قوله تعالى في مطلع السورة ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ وأن نقارن بين هذا الاستدلال ، وبين الاستدلالات السابقة ، فلم تبين الاستدلالات السابقة كيفية الإحياء ، وليس فيها أمر بالنظر كما هنا وانظر إلى حمارك . . . وانظر إلى العظام . وقد جاءت القصة هاهنا ردا لاستفهام تعجبي أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟ لذلك ختمت القصة بقوله : ﴿أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ .

ثم تأتي قصة إبراهيم عليه السلام مع الأطيار مبدوءة بطلبه رؤية إحياء الموتى ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ (البقرة:٢٦٠) ويراعى ما في هذه القصة من ذبح الأطيار وتوزيع أجسادها على رءوس الجبال فقد روي «أنه أمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها ويفرق أجزاءها ، ويخلط ريشها ودماءها ولحومها ، وأن يمسك رءوسها ، ثم أمر أن يجعل أجزاءها على الجبال ، على كل جبل ربعا من كل طائر ، ثم يصيح بها : تعالين بإذن الله ، فجعل كل جزء يطير على الآخر حتى صارت جثثا ، ثم أقبلن فانضممن على رءوسهن كل جثة على رأسها»[1] .

وهذه الرواية تدل على أن هذه القصة في الاستدلال للبعث أدعى إلى اليقين به من كل مامضى من القصص ، ولما صدرت بقول الخليل ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ ختمت بقوله تعالى : ﴿وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ .

---

(١) الكشاف ٣٩٢/١ .

وملحظ آخر هو أن هذه السورة الكريمة اختصت ببسط الحديث عن الإنفاق في سبيل الله، وضرب الأمثال له ولمضاعفة أجره وجاءت تشبيهات الإنفاق في سبيل الله مشتملة أيضا بالاستدلال للبعث، لأن الإيمان به أدعى إلى الإنفاق في سبيل الله انظر كيف صور مضاعفة النفقة في سبيل الله : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ . . . ﴾ (البقرة:٢٦١) وكان يمكن أن يؤدي هذا المعنى بقولنا : الحسنة بسبعمائة ضعف، ولكنه جاء بالمثل هكذا ليصور قصة البعث[١] . التي تتجدد كل يوم في النبات تناسبا مع مطلع السورة من وصف المتقين بالإيمان بالغيب الذي مداره البعث كما ذكر برهان الدين .

وكلامنا في مثل النفقة جاء استنباطا من كلامه ـ في وجه سياقة هذا المثل ـ «وساقه على وجه يتضمن إحياء الموات الذي هو أنسب الأشياء لما قبله من نشر الأموات فهو إيماء إلى الاستدلال على البعث بأمر محسوس، وذلك من دقيق الحكمة فكأنه تعالى يقول : «إن خليلي لما كان من الراسخين في رتبة الإيمان أهلته لامتطاء درجة أعلى من درجة الإيقان بخرق العادة في رفع الأستار على يده عن إحياء الأطيار، وأقمت نمطا من ذلك لعامة الخلق مطويا في إحياء النبات على وجه معتاد فمن اعتبر به أبصر ومن عمي انعكس حاله وأدبر»[٢] .

كذلك لم يكثر الأمر بإقامة الصلاة، والمحافظة عليها، والاستعانة بها كثرته في هذه السورة فقد جاء ذلك في تسع آيات تناسبا مع مطلع السورة من وصف المتقين بإقامة الصلاة .

---

(١) ينظر في تحليل هذا التشبيه : أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم، ص ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨ دكتور إبراهيم الهدهد مكتبة وهبة ١٤٤٠هـ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤/٧٤ .

كذلك لم يطل الحديث عن اليهود طوله في هذه السورة مع يقيننا بأنهم كفار من حيث عقيدتهم ، فقد جاء في هذه السورة الحديث عن صور شتى من إيمانهم ثم كفرهم ثم إيمانهم . . . إلخ فكأن ذلك يتناسب مع ما في مطلع السورة ، من قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ** ﴾ .

ومما يتناسب أيضا مع مطلع السورة في قوله : ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ** ﴾ حديثه سبحانه عن المنفق المرائي بنفقته ، والرياء خصلة من خصال المنافق ولبرهان الدين البقاعي ـ رحمه الله ـ نصوص جيدة في هذه السورة عند بعض التراكيب نستطيع أن نستخرج تفسيرها من مطلع السورة قال عند قوله تعالى : ﴿ **فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ . . .** ﴾ .

« وحكمة الإتيان بمن التبعيضية في هذه السورة دون بقية القرآن ، أنه ـ سبحانه ـ لما فرض لهم فيها الريب الذي يلزم منه زعمهم أن يكونوا اطلعوا على مثيل ، أو سمعوا أن أحدًا عثر له على شبيه اقتضى الحال الإتيان بها ، ليفيد أن المطلوب منهم في التحدي قطعة من ذلك المثل الذي ادعوه »[1] .

وترجيحه أن تكون من تبعيضية يتناسب الترقي في التحدي ؛ والآية الأقرب إلى تركيب هذه الآية قوله تعالى في سورة يونس : ﴿ **أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ** ﴾ (يونس:٣٨) فالإعجاز عند البقاعي يأتي في سورة ، أو في

(١) نظم الدرر ١/١٦٥ .

مقدارها من الآيات ، وادعاؤهم أن القرآن افتراء لا يقضي أن يكونوا اطلعوا على مثيل لكنه لما فرض الريب في مطلع آية التحدي في سورة البقرة ورؤية المثيل من دواعي الريب تحداهم بالإتيان بسورة من هذا المثل والناظر في مطلعي سورتي البقرة ويونس يتبين الفرق ، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ﴾ ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ فقد جاء نفي الريب بأبلغ بيان في مطلع سورة البقرة ، وجاءت آية التحدي بعد ببيان قاهر ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ تناسبا مع المطلع ، وبيانا لكمال هذا الكتاب ، ونفيا لكل ريب يخدش هذا الكمال ، ولعل برهان الدين كان ناظرا إلى مطلع البقرة في بيان هذه الحكمة التي ذكرها ، فقد صرح بالنظر إلى أول السورة في مواطن متعددة من السورة .

قال عند قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة:١٦٧).

« ولعل الآية ناظرة إلى قوله أول السورة : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ . . . ﴾ يعني : كما أن في أهل الكتاب منافقين مصارحين ، فكذلك في العرب ، فصار قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ . . . ﴾ شاملا للأقسام الأربعة ثم أتبع ذلك المنافقين من العرب ثم المنافقين والمشاققين من أهل الكتاب ، ثم المجاهدين من العرب ، فصار قسما العرب مكتنفين لقسمي أهل الكتاب ، إشارة إلى أنهم المقصودون بالذات ، وأنه سيؤمن أكثرهم »[1] .

(١) نظم الدرر ٣١٣/٢ .

وأفهم من هذا النص أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ . . . ﴾ إجمال لوصف موقف الكافرين من الكتاب . . . ثم صنف القرآن ـ بعد هذا الإجمال ـ الكافرين إلى أصناف ... ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا . . . ﴾ (البقرة:٨) وما ترتب على هذه الآية بعد ذلك . . . ثم الصنف الذي يتحدث عنه هنا .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ (البقرة:١٦٥). . . وصنف آخر يعود إلى الصنف الأول ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (البقرة:٢٠٤) وصنف آخر ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ (البقرة:٢٠٠).

وصنفان ممدوحان يعودان إلى أوصاف المتقين في مطلع السورة الكريمة ، هما قوله : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً . . . ﴾ (البقرة:٢٠١) وقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ . . ﴾ (البقرة:٢٠٧).

مع مراعاة أن هذا التركيب ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن . . ﴾ الذي يصنف الناس لم يتكرر في القرآن تكرره في سورة البقرة ، والمواضع التي جاء فيها في القرآن[1] لم تتناول تصنيف الناس من الوجهة التي تناولتها هذه السورة ، وهذه أسرار لا تتجلى إلا بدراسة تنوع هذا التركيب تبعا لتنوع مساقاته في كل موضع لا سيما تنوع مطالع السور التي جاء فيها .

ومما صرح به في بيان العلاقة عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى

(١) راجع هذا التركيب في سورة الحج ٣، ٨، ١١ والعنكبوت ١٠، ولقمان ٦، ٢٠، وفاطر ٢٨ .

﴿ بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، قوله : « أي الذي له العلم الشامل والقدرة التامة ، انعطاف على ذلك الكتاب لا ريب فيه وما شاكله »[1] .

لعله يقصد أن قوله ﴿ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ انعطاف على قوله : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴾ أي من يكتم هذا الكتاب الكامل الذي أنزله من له العلم الشامل والقدرة التامة فله من العذاب كذا وكذا ، على أي حال فلم يرد توعد لمن يكتم الآيات بهذا التركيب ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ . . . ﴾ إلا في هذه السورة الكريمة هنا وقيل ذلك في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ . . . ﴾ (البقرة:١٥٩) تناسبا مع تفرد المطلع بوصف الكتاب بالكمال ونفي الريب عنه ، وتناسبا مع ما سبق في السورة من تحريف أهل الكتاب كتابهم ، وكتمان ما فيه وتكرره في غير موضع من هذه السورة الكريمة ، بحيث يصبح من خصائص سورة البقرة .

وكان مما قاله برهان الدين ـ رحمه الله ـ عند قوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ . . . ﴾ (البقرة:٢١٦) قوله :

« ولما كانت النفقة من أصول ما بنيت عليه السورة من صفات المؤمنين ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ثم كرر الترغيب فيها من أول آيات الحج الماضية آنفا مع أنها من دعائم بدايات الجهاد إلى أن تضمنتها الآية السالفة مع القتل الذي هو نهاية الجهاد ، كان هذا موضع السؤال عنهما فأخبر تعالى عن ذلك على طريق النشر المشوش ..... فقال معلما لمن سأل : هل سأل المخاطبون بذلك عنهما ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ... ﴾[2].

---

(١) نظم الدرر ٢/٣٣٠ .

(٢) نظم الدرر ٣/٢١٢ .

فاشتمال مطلع السورة على أصول بنيانها من أقوى العلاقات ، وبعد تفنن الأسلوب في الحديث عن الإنفاق من خصائص هذه السورة ، ووضوح كلام البقاعى هنا لا يحتاج إلى بسط .

ومما صرح به في بيان العلاقة ما قاله عند قوله تعالى : ﴿ **لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ** . . . ﴾ (البقرة:٢٥٦) قال : ـ رحمه الله ـ « ولعل في الآية التفاتا إلى ما ذكر أول السورة في الكفار من أنه سواء عليهم الإنذار وتركه »[1] ولم يرد في القرآن ﴿ **لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ** ﴾ في غير هذه السورة تناسبا مع مطلعها ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ** . . . ﴾ لأن آية المطلع هي الأخرى لم ترد في أي من سور القرآن ، وإن جاء التعبير عن معناها بوجوه أخرى .

ومن مقالاته في بيان علاقة المطالع بالمقاصد ما قاله عند قوله تعالى : ﴿ **مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ** . . . ﴾ (البقرة:٢٦١) قوله : « ولما انقضى جواب السائل عن الملك الذي لا تنفع عنده شفاعة بغير إذنه ولا خلة ولا غيرهما وما تبع ذلك ، إلى أن ختم بقصة الأطيار التي صغت إلى الخليل بالإنفاق عليها ، والإحسان إليه ، ثنى الكلام إلى الأمر بالنفقه ، قبل ذلك اليوم الذي لا تنفع فيه الوسائل إلا بالوجه الذي شرعه بعد قوله : ﴿ **مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ** . . . ﴾ نظر إلى أول السورة تذكيرا بوصف المتقين حثا عليه فضرب لذلك مثلا صريحا لمضاعفتها »[2] .

على أنه قد ورد الحديث عن الإنفاق في مطالع سور أخرى ، لكن التشبيه هنا جاء مشتملا بالاستدلال على البعث لعلاقة المجاورة في نظام

---

(١) نظم الدرر ٤/٤٤ .

(٢) نظم الدرر ٤/٧٣ .

الآيات التي في مطلع هذه السورة الكريمة ، وقد ظهر ذلك في اختيار عناصر التشبيه كما ذكرت .

ومما صرح به أيضا في بيان العلاقة عند قوله تعالى : ﴿ **ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ** . . . ﴾ (البقرة:٢٨٥) ـ قوله ـ بعد بيان مناسبتها لما قبلها : « وأما مناسبتها لأول السورة ردا للمقطع على المطلع ، فهو أنه لما ابتدأ السورة بوصف المؤمنين بالكتاب الذي لا ريب فيه على الوجه الذي تقدم ختمها بذلك ، بعد تفصيل الإنفاق الذي وصفهم به أولها على وجه يتصل بما قبله من الأوامر والنواهي »[1] .

وهذا الموطن من أصرح المواطن في موضوعنا الذي نعالج ، ولوقوع هذه الآية في نهاية البقرة وجه لطيف في بيان وصف الكتاب أولا ، ثم موقف الناس ، ثم ختم السورة بأرقى المواقف تجاه هذا الكتاب المحكم ، وهو ما ينبغي أن يكون ، وجاء مطلع الآية بلفظ الماضي هاهنا (ءامن) ولنا أن نقارن بين هذا اللفظ ، وبين مجيئه بالمضارع في مطلع السورة الكريمة ﴿ **ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ** ﴾ إنها رحلة وصف هذا الكتاب والاستدلال لصدقه واليقين بما يحويه، ينبغي أن تختم هذه الرحلة بالإيمان والتصديق، ولما حوت السورة شرائع أهل الكتاب كان من شريعة المؤمنين ألا يفرقوا بين أحد من رسله وكل آمن ﴿ **بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ** ﴾ اقرأ في المطلع إن شئت ﴿ **وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ** ﴾ ألا لله تنزيل هذا الكتاب .

---

(١) نظم الدرر ١٦٨/٤ .

وقد ختم برهان الدين الكلام على هذه السورة بقوله :

« وقد بان بذكر المنزل والإيمان به ، والنصرة على الكفار وبعد تفصيل أمر النفقة ، والمال الذي ينفق منه . . . رد مقطعها على مطلعها وآخرها على أولها »[1] ولم أجد في تراث علمائنا ما أستطيع أن أستنبط منه حديثا في علاقة المطالع بالمقاصد في هذه السورة الكريمة ، سوى ما ذكرت من كلام برهان الدين ـ رحمه الله ـ وما قاله العلامة الدكتور دراز في بيان وحدة هذه السورة الكريمة .

* * *

(١) نظم الدرر ٤/١٨٨ .

الفصل الثاني

سورة آل عمران

يكاد يجمع الأئمة[1] على أن صدر هذه السورة إلى نيف وثمانين آية منها نزلت في وفد نصارى نجران في محاجتهم رسول الله ﷺ بل روي «أن السورة كلها إلى قوله : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ كان سبب نزولها نصارى نجران ، ولكن مزج معهم اليهود ، لأنهم فعلوا من الجحد والعناد فعلهم»[2] .

وكان سبب نزول هذه الآيات نورا اقتبس منه أهل البصيرة تأويلات لآيات هذه السورة ، كانت لنا فيها بصائر تهدي إلى استكشاف علاقة مطلع السورة بمقصودها الأصلي وعلاقة المقاصد الأخرى بذلك المقصود الأصلي .

---

(١) ينظر : في سبب نزول هذه الآيات جامع البيان ١٠٧/٣، ١٠٨، ومفاتيح الغيب ٦٦/٤، وأسباب النزول للواحدى النيسابورى ص٦٧، والجامع لأحكام القرآن ١٣٥٧/٢، وتفسير ابن كثير ٣٦٨/١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٤٧١/٢ .

ذكر محمد بن جرير الطبري ـ بعد ذكر سبب النزول ـ في تأويل قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ أنه ـ سبحانه ـ افتتح السورة بتبرئة نفسه ـ تبارك وتعالى ـ مما قالوا ، وتوحيده إياها بالخلق والأمر لا شريك له فيه ، ورد عليهم ما ابتدعوا من الكفر ، وما جعلوا معه من الأنداد ، واحتجاجا عليهم بقولهم في صاحبهم ليعرفهم بذلك ضلالتهم فقال : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ﴾[1] .

وذكر تأويل السلف معنى ﴿ ٱلۡحَيُّ ﴾ « فقال بعضهم : معنىذلك من الله تعالى ذكره ـ أنه وصف نفسه بالبقاء ، ونفى الموت الذي يجوز على من سواه من خلقه عنها (ثم عز إلى محمد بن جعفر بن الزبير أن معنى الحي) الذي لا يموت ، وقد مات عيسى ، وصلب في قولهم ، يعني في قول الأحبار الذين حاجوا رسول الله ﷺ من نصارى أهل نجران . . . وقال آخرون : معنى الحي ـ الذي عناه الله ـ عز وجل ـ في هذه الآية ووصف به نفسه ـ أنه المتيسر له تدبير كل ما أراد وشاء لا يمتنع عليه شيء أراده ، وأنه ليس كمن لا تدبير له ، من الآلهة والأنداد ، وقال آخرون : معنى ذلك أن له الحياة الدائمة التي لم تزل له صفة ، ولا يزال كذلك . . ومعنى ذلك عندي أنه وصف نفسه بالحياة الدائمة ، التي لا فناء لها ، ولا انقطاع ، ونفى عنها ما هو حال بكل ذي حياة من خلقه من الفناء وانقطاع الحياة عند مجيء أجله فأخبر عباده أنه المستوجب على خلقه العبادة والألوهة ، والحي الذي لا يموت ولا يبيد كما يموت كل من اتخذ من دونه ربا ، ويبيد كل من ادعى من دونه إلها واحتج على خلقه بأن من كان يبيد فيزول ويموت فيفنى ، فلا يكون إلها يستوجب أن يعبدون الإله الذي لا يبيد

(١) جامع البيان ١٠٨/٣ .

ولا يموت ، وأن الإله هو الدائم الذي لا يموت ولا يبيد ولا يفنى ، وذلك ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[1] .

وهذه الصفة ـ بكل ما أورد السلف من تأويلات لها ـ من مقتضيات الوحدانية التي هي أول صفات الله في هذه السورة ، فالواحد في ذاته واحد في صفاته ، ولوصفه ـ سبحانه ـ نفسه في مطلع هذه السورة بالحياة تفسير لاختصاص هذه السورة بكثير من المعاني كما سيأتي بيان شيء منه .

وقد ذكر ابن جرير تأويل السلف معنى ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ فقال بعدما أورد وجوه اختلاف القراءات فيها : «ومعنى ذلك كله القيم بحفظ كل شيء ورزقه ، وتدبيره وتصريفه فيما شاء وأحب من تغيير وتبديل وزيادة ونقص . . . عن مجاهد . . . ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ القائم على كل شيء . . . عن الربيع ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ، وقال آخرون : معنى ذلك القيام على مكانه ، ووجهوه إلى القيام الدائم الذي لا زوال معه ولا انتقال ، وأن الله ـ عز وجل ـ إنما نفى عن نفسه بوصفها بذلك التغيير والتنقل من مكان إلى مكان ، وحدوث التبدل الذي يحدث في الآدميين وسائر خلقه وغيرهم . . . عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ القيّام على مكانه من سلطانه في خلقه لا يزول وقد زال عيسى في قولهم يعني : في قول الأحبار الذين حاجوا النبي ﷺ من أهل نجران في عيسى عن مكانه الذي كان به وذهب عنه إلى غيره ، وأولى التأويلين بالصواب ما قاله مجاهد والربيع ، وأن ذلك وصف من الله ـ تعالى ذكره ـ نفسه بأنه القائم بأمر كل شيء في رزقه والدفع عنه . . . من قول العرب : فلان قائم بأمر هذه البلدة يعني بذلك : المتولي تدبير أمرها»[2] .

---

(١) جامع البيان ٣/١٠٩ .

(٢) جامع البيان ٣/١١٠ .

وهذه الصفة أيضا من مقتضيات الوحدانية ، والذي يكون على ذكر من هذه الصفات الثلاثة ، وتأويل أهل البصر لها ، ويستظهر كتاب الله ، ويقرأ السورة الكريمة يرى أن معاني هذه السورة جرت في هذه الروافد الثلاثة المذكورة في مطلعها ، مع مراعاة تفرد هذا المطلع بهذه الصفات ، ومراعاة تفردها بتفصيل الحديث عن أهل الإنجيل « قال الحرالي : ولما كانت هذه السورة منزلة لتبيين ما اشتبه على أهل الإنجيل جرى ذكر أهل التوراة فيها مجملا بجوامع من ذكرهم ، لأن تفاصيل أمرهم قد استقرأته سورة البقرة ، فكان أمر أهل التوراة في سورة البقرة بيانا ، وأهل الإنجيل إجمالا ، وكان أمر أهل الإنجيل في سورة آل عمران بيانا ، وذكر أهل التوراة إجمالا »[1].

وذكروا أيضا أنه « لما كانت هذه السورة قرينة سورة البقرة وكالمكملة لها افتتحت بتقرير ما افتتحت به تلك ، وصرح في منطوق مطلعها بما طوي في مفهوم تلك »[2] ولعلهم يشيرون بذلك إلى التصريح بالتوحيد الذي هي من مدارج الإيمان بالغيب في الذروة .

ولعل مقالة الحرالي تفتح لنا بابا لفهم اختصاص السورة الكريمة بآية المتشابه ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ** ﴾ (آل عمران:٧) فالسورة منزلة لتبيين ما اشتبه على أهل الإنجيل ـ كما ذكر ـ فلعل الكيفية التي خلق بها عيسى عليه السلام من متشابه آيات الله في كتابه المفتوح والتي ينبغي رد الأمر فيها إلى الله ـ تعالى وجلت قدرته ـ فكذلك ينبغي أن يكون موقف المسلمين من متشابه الآيات

(١) نظم الدرر ٤/٢٩٨ .

(٢) تناسق الدرر في تناسب السور ، ص٨٣ .

في كتاب الله المقروء ، وأن يكون قولهم : ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾[1] استسلاما وانقيادا .

وسبب النزول هو الذي هدى بصيرة البقاعي إلى بيان مقصود السورة فقال : « ومقصودها : التوحيد . . . فلما ثبت بالبقرة أمر الكتاب في أنه هدى ، وقامت به دعائم الإسلام الخمس ، جاءت هذه لإثبات أمر الدعوة الجامعة في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ . . ﴾ فأثبت الوحدانية له ـ سبحانه ـ بإبطال إلهية غيره ، بإثبات أن عيسى عليه السلام الذي كان يحيي الموتى عبده ، وهو الذي أقدر آحاد بنى إسرائيل ـ على عهد موسى عليه السلام على إحياء ذلك القتيل . . . .

والدليل على أن المقصود من هذه السورة الدلالة على التوحيد تسميتها بآل عمران ، فإنه لم يعرب عن هذا القصد في هذه السورة ما أعرب عنه ما ساقه ـ سبحانه ـ فيها من إخبارهم بما فيها من الأدلة على القدرة التامة الموجبة للتوحيد ، الذي ليس في درج الإيمان أعلى منه ، فهو التاج الذي هو خاصة الملك المحسوسة ، كما أن التوحيد خاصته المعقولة »[2] .

والسورة منزلة لبيان ما اشتبه على النصارى فلم لم تُسَمَّ بسورة « عيسى »؟ ولا تستهِينَنَّ بكلام البلاغيين في أن تسمية السورة بمقصود من مقاصدها من باب تسمية الكل باسم الجزء ، فالأمر في فقه هذا الكتاب على غير الوجه الذي تظن ، لأن مقالة البقاعي تلك تساندها تراكيب قصة آل عمران مع استحضار تأويلات السلف الصالح لمطلع السورة الكريمة .

---

(١) وهو ما عليه مذهب أهل السنة من رد المتشابه إلى المحكم ، وهم أبصر الناس بفقه هذا الكتاب .

(٢) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ٢/٦٧، ٦٨ .

فقصة آل عمران هي قطب هذه السورة وعمودها ، وجاءت تراكيب القصة على ما اقتضاه مطلع السورة من التوحيد ومقتضياته .

ولعل ما يساندنا في هذا الفهم من أهل البصيرة ما ذكره العلامة ابن عاشور من أن السورة من أولها إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ... ﴾ « تمهيد لما نزلت السورة بسببه ، وبراعة استهلال لذلك »[1] ولم يكن ـ رحمه الله ـ ممن يلقون بالكلام دون تدبر ، والأمر كما قال ـ رحمه الله ـ إلا أننا نرى أن هذا التمهيد الذي ذكره جرى في هذه الروافد الثلاثة المذكورة في مطلع السورة . أليس من مقتضيات القيومية أن يكون القيم عالما بكل ما يقوم عليه؟ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ وخالف أنت هذا النظم وقل : إن الله يعلم كل شيء في الأرض وفي السماء أترى فرقا؟ لا ريب أنك واجد أن التعبير المعجز يؤدي مفهومه إلى المعنى الآخر على التمام والكمال ، ولكن الثاني لا يؤدي إلى الأول ، فضلا عمَّا في التعبير المعجز من دقائق يطويها التعريف والتنكير والتأكيد وغير ذلك مما يناسب معنى القيومية ، ودلل لقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ بقوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ بما لا يدع مجالا لمرتاب في خفاء ذلك على كل أحد إلا الله ، لذلك ينبغي أن يكون الإقرار بعد ذلك بأنه ﴿ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ قال القرطبي : « وهذه الآية تعظيم لله تعالى وفي ضمنها الرد على نصارى نجران وأن عيسى من المصورين »[2].

---

(١) التحرير والتنوير آل عمران ص١٤٦ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢/١٣٦٠ .

ولما كان من مقتضيات الإيمان بالقيومية الثقة بالرزق ، وتحري جمعه من الحلال وتقبيح جمعه من الحرام ، لأنه يؤدي إلى اهتزاز قاعدة الثقة بقيومته ، كان لهذه السورة الكريمة خصوصيات في الدعوة إلى الزهد ، وجرت المعاني الكثيرة في هذا الرافد المذكور في مطلع السورة (القيوم) والذي قلته جاء استبصاراً لكلمة البقاعي ـ عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا . . .﴾ « ولما كانت هذه السورة سورة التوحيد ، كان الأليق بخطابها أن يكون الدعاء فيه إلى الزهد أتم من الدعاء في غيرها ، والإشارة فيه إلى ذلك أكثر من الإشارة في غيره ، فكانت هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ . . .﴾ قاطعة للقلوب »[1] .

مع تدبر الفرق بين قوله تعالى : ﴿ لَن تُغْنِيَ ﴾ وقولنا : (لن تدفع عنهم . . . . .) وكان التعبير الثاني هو الأليق بمقام دفع العذاب بحسب النظر إلى الآية وحدها لكن التعبير القرآني ناسب معنى القيومية ، وجاء دفع العذاب في التعبير المعجز ضمن فوائد المال والولد ، وأفاد مع ذلك أن الاهتمام بجمعه بنية دفع السوء وغيره ينافي الإيمان بالقيومية التي مقتضى الإيمان بها التسليم والانقياد للواحد ، ثم جاء عقب هذه الآية إشارة لتنويع الناس من حيث الإيمان بالقيوم ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ . . .﴾ ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ . . .﴾ بما ستفصله السورة بعد ، ثم جاء قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ الذي يعد من خصائص هذه السورة والذي يجري في رافد الدعوة إلى الزهد ، الذي هو من مقتضيات الإيمان بالقيومية .

ثم جاء القرآن بعد ذلك برصد جزاء المؤمنين بقيومية الله ووحدانيته ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ . . . ﴾ ثم رصدت أوصافهم من بعد ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤/٢٥٤ .

﴿ إِنَّنَآ ءَامَنَّا . . . ﴾ ولما كانت الدعوة إلى الزهد الذي يقتضي البذل ، الذي من أعلى أنواعه بذل الروح ، وكانت هذه الأمور تحتاج إلى صبر مُحَلَّى بالصدق ، وكان القنوت معينا عليه ، والإنفاق من ثمراته ، وإمساك المال وحبه من سيئات هذا الصبر مما يقتضي الاستغفار كان نظام أوصافهم في النظم المعجز ﴿ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ فهذه الصفات ـ التسليم لله ، والصبر ، والصدق ، والتعبد ، والإنفاق والاستغفار ـ إطار عام لقصة بدر وأحد وحمراء الأسد التي جاءت في السورة بعد ، والناظر في تراكيب هذه القصص في هذه السورة وهذه الآية التي بأيدينا ، بوسعه أن يفسر كثيرا من مشتبه النظم في السورة الكريمة .

ثم عادت السورة إلى الأصل الكبير الذي هو مقصودها صراحة بقوله : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ . . . ﴾ وهذه الشهادة الإلهية لم تقع إلا في هذه السورة ، وأحسب أن علاقة هذه الآية بمطلع السورة من أوضح ما يكون ، وتدبر تراكيب الآية واستبصار المطلع يؤديان إلى التسليم بأنه من عند الله ، ولما كان روح الاعتقاد بوحدانية الله وحياته وقيوميته التسليم له والانخراط في منهجه جاء قوله : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾[1] « جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى » (آل عمران:١٩) وهي من خصائص هذه السورة جرت في الرافد الأول من روافد هذه السورة ، وكان بداية التعبير بها فاتحة الإكثار بالتعبير عن الاستسلام والانقياد لله في هذه السورة وكثر استعمال النظم لها في هذه السورة كثرة تجعله من خصائصها .

---

(١) الكشاف ٤١٨/١ .

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ﴾ (آل عمران:٢٠) ومجال التنظير بين هذه الآية وبين قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ . . .﴾ إلى آخر قوله : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ . . .﴾ (آل عمران:٦١-٦٦) يجعلنا نعتقد أن الآية الأولى قاعدة المحاججة وإجمال لطريقتها وبيان لنتائجها الواقعة في السورة بعد ، وتلك كلمة ابن عاشور أن السورة إلى قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ . . .﴾ تمهيد لما نزلت السورة بسببه وبيان أيضا أن قصة آل عمران هي قطب السورة وعمودها .

ومن خصائص هذه السورة مما يجري في الرافد الأول من مطلعها ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ . . .﴾ (آل عمران:٨٣) وقوله : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ . . .﴾ (آل عمران:٨٥) مع تبصر أن هذين القولين وقعا بعد عرض قصة آل عمران ، ولنا في المقارنة بين هذين القولين من حيث التراكيب ـ وبين تراكيب آية شهادة الله لنفسه بالوحدانية ، وتقرير أن الدين عند الله الإسلام استناد قوي في التدليل على صدق مقالة البقاعي في أن الدليل على أن مقصودها التوحيد تسميتها بآل عمران .

واستناد آخر إلى تركيب القصة ذاتها ، فقد مهد النظم لإيراد قصة آل عمران بآيتين : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (آل عمران:٣٣،٣٤).

أرأيت قد جاء ذكر عيسى عليه السلام ضمنا في آخر المصطفين وفي ضمن ذلك رد على النصارى ، في أنه لم يحظ باصطفاء وحده وإنما هو من آل عمران الذين جرت فيهم أعاجيب قدرة الله ، وملمح لطيف يُرد به على النصارى أيضا في الآية الثانية التي وقعت بدلا ﴿ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا . . .﴾ ولا ريب

أن النصارى واليهود على التسليم بأن آل عمران ذرية مصطفاة ، والتسليم بهذا تسليم ببشرية عيسى عليه السلام ولئن ورد الشك في حقيقته فإيراد الشك في ألوهيته أولى .

ولئن أورد الشك في آل عمران فوروده في آل إبراهيم الذين منهم محمد صلى الله عليه وسلم الذي يحاججونه والذين ينحدر منهم آل عمران ، والذين ضمنهم عيسى يأتى ضمنا ، والإقرار بأن هؤلاء المصطفين جميعا ذرية آدم الأطهار ، مما لا ريب فيه ، فأى خصوصية لعيسى دون هؤلاء حتى يكون ، ابنًا لإله أو إلها ، إن تركيب الآيتين ناظر إلى مطلع السورة الكريمة ، فقد مات هؤلاء جميعا كما مات عيسى وسبحان الحي ولا ينبغي أن يكون ميلاده المعجز دعوى تأليه ، ولئن كان كذلك فدعوى التأليه لآدم أولى ، وليس عيسى واحدا في خلقه ولا في تصرفه ولا في تفضيله ، وسبحان الواحد ثم تأتي تراكيب القصة غير مفردة لعيسى باصطفاء ، وإنما جعلته ذيل المصطفين من آل عمران كما يقضى بذلك ، وذلك في الرد على النصارى أقوى ولحجتهم أقرع .

لذا لو خالفنا النظم المعجز مثلا وقلنا : (وإذ قالت حنَّة رب[1] إنى وضعتها أنثى . . .) وكان هذا التعبير المقترح يكون أدخل في باب الإيجاز وأكثر تطابقا مع الواقع ، فما فائدة عدم التصريح باسم أم مريم ، وما فائدة إضافتها إلى عمران؟ ﴿ **إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى** . . .﴾ (آل عمران:٣٦).

إن ذكر عمران هنا هو الرابط وعمود قصص بني إسرائيل في السورة فهو الذي ربط القصة بالآيتين السابقتين ، واندرجت بعد قصة مريم ،

(١) وحنة هذه «هى حنة بنت فاقود بن قنبل جدة عيسى عليه السلام» . الجامع لأحكام القرآن ١٤١٦/٢ .

وزكريا ـ عليهما السلام ـ ثم عيسى من بعدهما ، حتى لا يتبادر إلى ذهن مرتاب أن . . . هؤلاء جميعا ليسوا من آل عمران الذين اصطفاهم الله ، ولو جاء النظم على ما اقترحناه من التعبير لانفرط عِقْدُ القصة ، الذي انتظمه غرض هذه السورة الكريمة ، وهذه القصة من قصص آل عمران تفردت السورة بحلقة منها حديث الاصطفاء وحمل مريم ، ونذر أمها إياها ـ على اشتهائها الولد[1] ـ إلى بيت المقدس ، وقصة رزق مريم العجيب في نوعه وكيفيته ، وقصة تقبل الدعاء ، الذي جاء على لسان من آمن بقدرة الله وقيوميته وحياته ووحدانيته هكذا كان آل عمران في الإيمان بالوحدانية ، والذي يتدبر فروق النظم في هذه القصة ، يرى أنها جرت في روافد مطلع السورة الثلاثة ، بل أغرب من ذلك أن يكون السر في مشتبه النظم هو غرض السورة الذي جاء في مطلعها ، والبقاعي يحثنا على تدبر اختلاف نظوم القصص فيقول :

« ولأجل اختلاف مقاصد السور تتغير نظوم القصص وألفاظها ، بحسب الأسلوب المفيد للدلالة على ذلك القصد ، مثال مقصود سورة آل عمران التوحيد ، ومقصود سورة مريم ـ عليهما السلام ـ شمول الرحمة فبدئت آل عمران بالتوحيد وختمت بما بني عليه من الصبر ، وما معه مما أعظمه التقوى ، وكرر ذكر الاسم الأعظم الدال على الذات الجامع لجميع الصفات ـ تكريرا لم يكرر في سورة مريم ، فقال في قصة زكريا عليه السلام :

---

(١) فقد رووا « أنها كانت عاقرا لم تلد إلى أن عجزت فبينما هي في ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخا له فتحركت نفسها للولد ، وتمنته فقالت : اللهم إن لك عليَّ نذرا شكرا إن رزقتنى ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمه ، فحملت بمريم وهلك عمران وهي حامل » الكشاف ٤٢٥/١ .

﴿ كَذَٰلِكَ يَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ وقال في مريم : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ . . . ﴾ ، وقال في آل عمران في قصة مريم ـ عليها السلام ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ . . . ﴾ وفي مريم : ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ وغير ذلك بعد أن افتتح السورة بذكر الرحمة لعبد من خلص عباده ، وختمها بأن كل من كان على منهجه في الخضوع لله يجعل له ودا ، وأنه ـ سبحانه ـ يسر هذا الذكر بلسان أحسن الناس خَلْقا وخُلُقا ، وأجملهم كلاما ، وأحلاهم نطقا ، وكرر الوصف بالرحمن وما يقرب منه من صفات الإحسان من الأسماء الحسنى في أثناء السورة تكريرا يلائم مقصودها ، ويثبت قاعدتها وعمودها »[1] .

ونضرب مثلا لذلك ، بقوله تعالى في آل عمران : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ . . . ﴾ (آل عمران:٤٠) وقال في مريم : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ (مريم:١٩) .

والعلة في هذا التغاير عند الكرماني أنه « قدم ذكر المرأة ، لأن في مريم قد تقدم ذكر الكبر في قوله : ﴿ وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ ، وتأخر ذكر المرأة في قوله : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ﴾ ثم أعاد ذكرها فأخر ذكر الكبر ليوافق عتيا ما بعده من الآيات »[2] ، فالعلة عنده مراعاة الفاصلة ، ونحن لا ننكر أثر التنغيم الصوتي في إبلاغ المعنى ، لكنا نرى وجها آخر في التعليل لهذا الفرق ، فقصة آل عمران مقصودها التوحيد ، وفيها مجادلة النصارى .

---

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ١/١٥٢، ١٥٣ .

(٢) البرهان في توجيه متشابه القرآن ص٤٧ .

ودعوى التأليه والبنوة عرضتا للنصارى من افتقاد عيسى في وجوده للسبب الأقوى في الوجود (الأبوة) ، والبشارة بيحيى في آل عمران جاءت مماثلة لهذا المقصود ، فقدم السبب الأقوى وأخر السبب الأدنى ولا يعترض علينا في هذا الاستنباط بأنه قد تقدم قوله تعالى في مريم : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا** ﴾ (مريم:٤)، وقوله : ﴿ **وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا** ﴾ (مريم:٥) فجاء ترتيب آل عمران على ترتيب مريم ، فالمقارنة فيما قاله زكريا عليه السلام بعد البشارة ، وهو ما وقع فيه التقديم والتأخير ، بل إن ما يعترض به علينا يمكن أن يكون معينا لنا في أن زكريا قدم ضعف السبب الأقوى ، وأعقبه بالأدنى في دعائه .

ولئن صح ما استنبطته فهو من أسباب تسميتها بآل عمران لدلالتها على التوحيد أيضا ، وكان هذا الاستنباط قبسا من بصيرة البقاعي في قوله : «ومناسبة ابتدائها بالتوحيد لما في أثنائها أنه لما كان خلق عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أنثى فقط ، وهي أدنى أسباب النماء ، كان وجوده إشارة إلى أن الزيادة قد انتهت ، وأن الخلق أخذ في النقصان . . . وصدرت هذه السورة التي نزل كثير منها بسببه بالوحدانية إشارة إلى أن الورث قد دنا زمان إرثه»[1] والوارث هو الحي .

ونموذج آخر يهدينا البقاعي إلى استكشافه في أن تراكيب القصة تتابع في تغايرها اختلاف المقصود قال رحمه الله ـ نقلا ـ عن الحرّالي «وقال الحرّالي : قد أنبأ ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه السورة الخاصة بقصة مريم ـ عليها الصلاة والسلام ـ من تقبلها وإنباتها وحسن سيرتها ، بما نفى اللبس في أمر ولدها ، لأن المخصوص بمنزل هذه السورة ما هو في بيان

(١) نظم الدرر ١٩٨/٤ .

رفع اللبس الذي ضل به النصارى ، فيذكر في كل سورة ما هو الأليق والأولى بمخصوص منزلها فلذلك ينقص الخطاب في القصة الواحدة في سورة ما يستوفيه في سورة أخرى ، لاختلاف مخصوص منزلها ، كذلك الحال في القصص المتكررة في القرآن من قصص الأنبياء ، وما ذكر فيه لمقصد الترغيب والتثبيت والتحذير[1] ، واهتداء ببصيرة الأئمة نقول ـ محاولين التعليل للفرق بين قول مريم هنا : ﴿ **قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ** . . .﴾ (آل عمران:٤٧) وقولها في مريم : ﴿ **قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ** . . . ﴾ (مريم:٢٠)، إنما عبر بالولد في آل عمران لأنها سورة التوحيد ، والأمر في نفي الولد ، ورفع اللبس الذي ضل به النصارى ، وإذا كان القصد نفي الولد في القرآن فإنه لم يذكر بغير هذا اللفظ ﴿ **مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥ** ﴾ (مريم:٣٥)، و(البقرة:١١٦)، و﴿ **قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا** ﴾ وغير ذلك من آيات الذكر الحكيم ، أما الغلام فإنه قد يطلق على الولد وقد لا يطلق ، لأنه وصف للإنسان في مرحلة سنية[2] .

وقد وقع الفرق عند تاج القراء الكرماني «لأن في هذه السورة تقدم ذكر المسيح وهو ولدها ـ وفي مريم تقدم ذكر الغلام حيث قال : ﴿ **لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا** ﴾[3] .

---

(١) نظم الدرر ٤/٣٥٧ .

(٢) قال الراغب «الغلام : الطارُّ الشارب يقال غلام بين الغلومة والغلومية ـ أما الولد فيقال للمولود قال أبو الحسن : الولد : الابن والابنة «المفردات (غلم ـ ولد)، ص٣٦٤، ٥٣٢ .

(٣) البرهان في توجيه متشابه القرآن ص٤٧ .

وقد استبصر العلماء نكات في بعض تراكيب هذه القصة تناسب الغرض المسوقة له القصة المذكور في مطلع السورة ، قال الرازي في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ (آل عمران:٤٥) «فإن قيل : كيف قال ﴿ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ والخطاب مع مريم ، وهي تعلم أن الولد الذي بشرت به يكون ابنها؟ قلنا : لأن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات فأعلمت بنسبه إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه»[1] لأن رأس القضية نفي الولد ، مع مراعاة تفرد القصة هنا بقوله : ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران:٤٧)، وبهذه الجملة فسروا معنى قوله : ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ ، وذلك أنسب في الرد على النصارى ، ومن مفردات هذه السورة في هذه القصة مثلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران:٥٩) ، فلئن كان عيسى كلمة الله فآدم أيضا كلمة الله وقد لحظ المفسرون هذا التشاكل،وأجروا التشبيه على مقتضى ما لحظوه، فقد قالوا : «والتشبيه واقع على أن عيسى خلق من غير أب كآدم ، لا على أنه خلق من تراب»[2] ، فأمر التراكيب في قصة عيسى جار في الرافد الأول من روافد هذه السورة (الوحدانية) .

ودونك آية المباهلة[3] التي هي من خصائص هذه السورة ، والتي هي أقطع للحجة في الرد على النصارى ، وقد نبه الدكتور أحمد بدوى إلى

(١) مسائل الرازى وأجوبتها ص٤٩ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤٥١/٢ .
(٣) يجمع المفسرون على أنها قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ ... ﴾ (آل عمران:٦١) .

مناسبة قصة عيسى عليه السلام بمطلع السورة بقوله : «وقد يكون مفتتح السورة موحيا بفكرتها ، ومتصلا بها شديد الاتصال ومتناسبا معها شديد التناسب ، فمن ذلك سورة آل عمران التي افتتحت بقوله : ﴿ **ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ** ﴾ ، وقد عالجت السورة أمر عيسى ، ونزهت الله عن الولد أولا ترى البدء مناسبا لهذا التنزيه؟»[1].

ومن بصائر البقاعي في محاولة ربط فروق التراكيب بمطلع السورة ما قاله عند قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ** ﴾ (آل عمران:٦٢) «ولما بدأ ـ سبحانه وتعالى ـ القصة أول السورة بالإخبار بوحدانيته مستدلا على ذلك بأنه الحي القيوم صريحا ، ختمها بمثل ذلك إشارة وتلويحا ، فقال عاطفا على ما أنتجه ما تقدم من أن عيسى صلى الله عليه وسلم عبد الله ورسوله ، معمما الحكم مفرقا بزيادة الجار في النفي»[2] ويتقارب مع هذا التركيب قوله تعالى : ﴿ **وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ** ﴾ (المائدة:٧٣) تناسبا مع ما شاع في السورة هناك من الحديث عن التثليث ، وقوله هنا ﴿ **إِلَّا ٱللَّهَ** ﴾ يتناسب مع مطلع السورة ﴿ **ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ** ﴾ فجاء عقب القصة بهذا التركيب ردا إلى المطلع ، وبهذه الوقفات نرى أن أئمتنا ينبهوننا إلى لحظ التناسب بين تراكيب السورة ومطلعها ، وتنبيهات أخرى أنبه إليها استنباطا من كلام علمائنا .

---

(١) من بلاغة القرآن ص٢٤١ .

(٢) نظم الدرر ٤/٤٤٤، والمقصود بالزيادة الزيادة الصناعية بحيث لا تؤثر في الإعراب شيئا ، وقد أطلقوا على مثل هذه المواضع في القرآن (التأكيد) على وجه الأدب في الاصطلاح مع الذكر الحكيم ، ولكن لم تشعر أقوالهم من قريب ولا من بعيد بالزيادة على معنى .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ . . .﴾ (آل عمران:٢٦،٢٧) من خصائص هذه السورة وهو ما يجري في الرافد الثالث من روافدها ، ومما يجري فيه أيضا قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ . . .﴾ (آل عمران:٧٥) وهو من خصائص السورة أيضا ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا . . .﴾ (آل عمران:٩١،٩٢) ومنه قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا . . .﴾ (آل عمران:١١٧) مع مراعاة تقييد الإنفاق بهذا القيد ﴿ فِى هَٰذِهِ . . . . . ﴾ وحاجة السياق إلى اسم الإشارة وحاجته إلى وصف الحياة بالدنيا ، وهذا أمر لا يتبين إلا بالتنظير بين أمثال هذا التشبيه وسياقاتها[1] .

ومن خصائصها أيضا فروق التراكيب في غزوة بدر ، وذكر موت النبي ﷺ وهي عندنا تجري في الرافد الثاني في المطلع وقصة أحد واختصاصها بهذه السورة مما يجري في الرافد الثالث في المطلع ، وقصة حمراء الأسد مما يجري في الرافدين الثاني والثالث أيضا ، وحديث الإنفاق في سبيل الله وذكر قول اليهود : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ . . . ﴾ مما يجري في الرافد الثالث .

ومن خصائصها أيضا ما ختمت به السورة من ذكر أوصاف الذين يؤمنون بالروافد الثلاثة التي جاءت في مطلع السورة ، وما ذكرته من جريان هذه المعاني في الروافد الثلاثة التي في مطلع السورة ، له في التراكيب ما يرجحه ، إلا أن إثبات ذلك يقتضينا النظر في كل التراكيب التي تناولت الحديث عن المعاني التي وردت هاهنا ثم إن القرآن يبين لنا

(١) ينظر في هذا الموضوع : أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم ص٢٤٦ ، دكتور إبراهيم الهدهد ، مكتبة وهبة ١٤٤٠هـ .

هذا الترابط القوي في السورة الواحدة ، وينبهنا إلى الكشف عنه ، أرأيت كيف كان قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران:١٩٩، ٢٠٠)

فختم السورة بالحديث عن أهل الكتاب ردًّا لآخرها على أولها ، وأمر المؤمنين بمقتضيات الإيمان بالروافد الثلاثة المذكورة في مطلع السورة .

فالسورة « قد بدأت بـ ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ ، وكان مدار السورة كلها على هذه الجملة الموجزة ، ثم لما أوشكت على الانتهاء ذكرت القارئ بأن الدعاء مخ العبادة ، فإذا كان لابد من الملجأ ، فليكن لله وحده ، فادعوه في كل الأوضاع في شتى شئونكم ، فهو الذي يقضي الحاجات ، لأنه قيوم السموات والأرض ، وبذلك تلتقى السورة وتتصل أجزاؤها في وحدة متحدة متماسكة »[1]، والحمد لله على ما أعطى ووفق .

* * *

(١) الإعجاز البياني في تركيب آيات القرآن الكريم وسوره ، ص٣٣٥، ٣٣٦ دكتور محمد أحمد يوسف القاسم .

الفصل الثالث

سورة الأعراف

هذا الاسم للسورة كان معروفا من عهد النبي ﷺ «أخرج النسائى عن زيد بن ثابت أنه قال لمروان بن الحكم : مالي أراك تقرأ في المغرب بقصار السور ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقرأ فيها بأطول الطوليين؟ قال مروان : قلت : يا أبا عبد الله ما أطول الطوليين؟ قال : الأعراف» .

وكذلك حديث أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ «كان يقرأ في المغرب بطولى الطوليين»[1] .

وكان افتتاحها بالحروف المقطعة ، واختصاصها بحرف الصاد داعية للتأمل ، وسبيلا من سبل الكشف عن العلاقات فقد ذكروا أنه «ما من سورة افتتحت بـ(الم) إلا وهى مشتملة على ثلاثة أمور (بدء الخلق والنهاية ـ التي هي المعاد ـ والوسط ـ الذي هو المعاش) والإشارة إليها الاشتمال على المخارج الثلاثة (الحلق واللسان والشفتين) وَزِيدَ في هذه السورة على ذلك الصاد لما فيها مع ما ذكر من شرح القصص[2] .

---

(١) التحرير والتنوير الأعراف ص٥ .

(٢) روح المعانى ٨/٧٤ .

ومما ذكروا أيضا لأجل الصاد أن معناه «أنا الله أعلم وأفصل»[1] .

وإن كان جمهور العلماء قد ارتضوا التحدي هو الوجه في الافتتاح بالحروف المقطعة ، إلا أن ما نقلناه نبهنا إلى خصيصة لهذه السورة ، هي تفصيل القصص وإلى أن الأئمة قد لحظوا علاقة بين مطلع السورة وأبرز خصيصة لها وكأن النظم المعجز يحثنا على التأمل بزيادة الصاد في هذه السورة ، دون السور المفتتحة بـ (الم) ، وكما كان كلامهم هاهنا كاشفا عن خصيصة ـ بيانية عند التحقيق ـ لهذه السورة كذلك كان كلامهم على وجه تسميتها بالأعراف كاشفا عن مقصودها .

والوجه القريب في هذه التسمية «أنها ذكر فيها لفظ الأعراف . . . ولم يذكر في غيرها من سور القرآن ، لأنها ذكر فيها شأن أهل الأعراف في الآخرة»[2] فكأن وجه التسمية هو اختصاصها بذكر الأعراف «من باب تسمية الشيء بجزئه»[3] .

وقد اشترط البلاغيون في الجزء أن يكون له مزيد خصوصية ، ليصلح معبرا عن الكل في أمثلة المجاز المرسل ، وكان البقاعي ـ رحمه الله ـ على وعي بمقالتهم في تفسير الوجه في التسمية ، وتلك مقولته في استبصار مقصود السورة تقرر أن مقصود السورة «إنذار من أعرض عما دعا إليه الكتاب في السور الماضية من التوحيد والاجتماع على الخير ، والوفاء لما قام على وجوبه من الدليل في الأنعام ، وتحذيره بقوارع الدارين ، وأدل ما فيها على هذا المقصد : أمر الأعراف فإن اعتقاده يتضمن الإشرف على

---

(١) البحر المحيط ٤/٢٦٦ .

(٢) التحرير والتنوير الأعراف ص٥ .

(٣) الصاوي على الجلالين ٢/٦٢ .

الجنة والنار ، والوقوف على حقيقة ما فيها ، وما أعد لأهلها الداعي إلى امتثال كل خير ، واجتناب كل شر »[1].

فالسورة هي سورة الإنذار كما قرر ـ رحمه الله ـ وجزاء الخائفين الجنة وجزاء الكافرين النار ، وبين هاتين المنزلتين يكون الأعراف ، ذلك المغزى الذي استنبطه البقاعي من التسمية ، هو محور السورة الذي تدور عليه مقاصدها ، والذي تكشف عنه تراكيب السورة ، وكان لجار الله الزمخشري تفسير لمعنى (كتاب) في مطلع هذه السورة :

يقول : « والمراد بالكتاب السورة »[2] هل كان الزمخشري ناظرا إلى مقصود السورة؟ وهل يستقيم لنا أن نفسر (الكتاب) في مطلع كل سورة بحسب مقصودها؟ فالكتاب في البقرة مثلا يكون معناه كتاب الغيب والكتاب هنا يسمى كتاب الإنذار؟ هل تتشاكل المعاني لهذه الكلمة بتشاكل مقاصدها؟ لعل ذلك يكون فلا أبصر ببلاغة القرآن من الزمخشري ـ رحمه الله ـ كما يتبين ذلك من استقرأ التفاسير البيانية للقرآن الكريم .

مقصود السورة كما قرره برهان الدين يجمله قوله تعالى : ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الأعراف:١، ٢) ذلك مطلع السورة الذي يكشف هيئة تراكيبها ، وجريان معانيها وخصائصها البلاغية .

---

(١) مصاعد النظر ١٣٠/٢، ١٣١ .

(٢) الكشاف ٦٥/٢ ، وقد بسط أبو السعود هذا القول في توجيه تقديرهم أن كتاب خبر المبتدأ محذوف تقديره هذا يقول : « وتذكير اسم الإشارة مع تأنيث المسمى لما أن الإشارة إليه من حيث إنه مسمى بالاسم المذكور لا من حيث إنه مسمى بالسورة ، كأنه قيل : المؤلف من جنس هذه الحروف مرادا به السورة كتاب » . إرشاد العقل السليم ٢٥٩/٤ ، بهامش الفخر الرازي .

كان للعلماء كلام بشأن مطلع السورة يحسن ذكره استئناسا بكلامهم ، يقول العلامة ابن عاشور : «افتتحت هذه السورة بالتنويه بالقرآن ، والوعد بتيسيره على النبي ﷺ ليبلغه ، وكان افتتاحها كلاما جامعا ، وهو مناسب لما اشتملت عليه السورة من المقاصد ، فهو افتتاح وارد على أحسن وجوه البيان وأكملها شأن سور القرآن»(١) .

وذكر الشيخ عبد المتعال الصعيدي معنى هذا المطلع ثم قال : «في هذا براعة مطلع للغرض المقصود من السورة»(٢) .

ويذكر الدكتور عبد الله شحاته أن بداية هذه السورة «تعد براعة استهلال أو عنوانا لما تشتمل عليه السورة وهي سمة غالبة في سور القرآن حيث نجد الآيات الأولى منها عنوانا معبرا عن أهدافها وسماتها»(٣) .

ومن قبل هؤلاء استصحب الأستاذ سيد قطب معنى هذا المطلع ليستكشف به وحدة بلاغة السورة فيقول في موطن : «وتعرض مصارع المكذبين بين الحين والحين حين يقف السياق عليها للتذكير والتحذير ، وهذه الوقفات تجيء وفق نظام ملحوظ في سياق السورة ، فبعد كل مرحلة هامة يبدو كما لو كان السياق يتوقف عندها ليقول كلمة تعقيب للإنذار والتذكير ثم يمضي»(٤).

ويقول أيضا : «وكل ما يعرض من مشاهد في صفحة الكون وفي يوم القيامة إنما هو خطاب غير مباشر وأحيانا مباشر للنبي ﷺ وقومه للإنذار والتذكير ، كما يشير هذا المطلع القصير»(٥) .

---

(١) التحرير والتنوير الأعراف ص٧ .
(٢) النظم الفني في القرآن ص١١١ .
(٣) أهداف كل سورة ومقاصدها ص٩٤ .
(٤) في ظلال القرآن ١٢٤٥/٣ .
(٥) في ظلال القرآن ١٢٤٦/٣ .

ويقول عند قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٧) ويجيء ذكر الشكر تنسيقا مع ما سبق في مطلع السورة : ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ »[١] .

وذلك المطلع تكونه عدة جمل ﴿ كِتَٰبٌ ﴾ ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وقد اختلفوا في إعراب (كتاب) على وجهين أشهرهما أنه خبر لمبتدأ محذوف[٢] ، وعليه فالجملة الثانية (صفة) وفيها تخصيص له بالإنزال تشريفا له ﷺ وتسلية تناسب رفع الحرج . والوجه الثاني : أنه مبتدأ وقع نكرة لوجوه « إما لأنها أريد بها النوع . . . . . وفائدة إرادة النوع الرد على المشركين إنكارهم أن يكون القرآن من عند الله واستبعادهم ذلك ، فذكرهم الله بأنه كتاب من نوع الكتب المنزلة على الأنبياء . . . وإما لأن التنكير أريد به التعظيم . . . وإما لأنه أريد من التنكير التعجيب من شأن هذا الكتاب في جميع ما حف به من البلاغة والفصاحة» وعليه فقوله : ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ « إما أن يكون صفة لكتاب ، وإما أن يكون هو الخبر ، فيكون المقصود من الإخبار تذكير المنكرين والمكابرين ، أو الامتنان والتذكير بالنعمة ، ويجوز أن يجعل الخبر هو قوله : ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ مع ما انضم إليه من التفريع والتعليل ، أى هو كتاب أنزل إليك فكن منشرح الصدر ، فإنه أنزل إليك لتنذر به الكافرين وتذكر به المؤمنين . . . وبهذه الاعتبارات وبعدم منافاة

---

(١) في ظلال القرآن ١٢٦٧/٣ .

(٢) يراجع الكشاف ٦٥/٢ ، والبحر المحيط ٢٦٦/٤ ، والفتوحات الإلهية ١١٩/٢، والصاوي ٦٢/٢ .

بعضها لبعض يحمل الكلام على إرادة جميعها ، وذلك من مطالع السور العجيبة البيان »[1] .

وذلك كلام العلامة ابن عاشور ، لكن الوجه الأول أولى ، لبعده من التأويل وقد ذكروا أن قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَكُن . . . ﴾ اعتراض ، واستخرجوا له فوائد تكون نورا لنا في استكشاف خصائص للسورة ، لا سيما أنه جاء بين الكتاب المنزل وما تعلق به ﴿ لِتُنذِرَ ﴾ الذي يعد رأس الأمر في هذه السورة ، وذلك الموقع جعلهم يقولون في شأنه ؛ إنه وقع ذلك « تقريرا لما قبله ، وتمهيدا لما بعده ، وحسما لتوهم أن مورد الشك هو الإنزال للإنذار »[2] .

وذلك معنى تفسير الزمخشري « لا تشك في أنه منزل من الله ولا تحرج من تبليغه »[3] ، وفائدة التقديم والتأخير عند الرازي « أن الإقدام على الإنذار والتبليغ لا يتم ولا يكمل إلا عند زوال الحرج عن الصدر »[4]، ومجيئة بين شيئين متصلين « مبادرة من المتكلم بإفادته لأهميته »[5] ، مع ملحظ مهم هو أنه « أسند النهي إلى الحرج ومعناه نهي المخاطب عن التعرض للحرج ، وكان أبلغ من نهي المخاطب ، لما فيه من أن الحرج لو كان مما ينهى لنهيناه عنك ، فانته أنت عنه بعدم التعرض له ، ولأن فيه تنزيه نبيه ﷺ بأن ينهاه فيأتي التركيب فلا تحرج منه »[6] .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير في سورة الأعراف ص١٠، ١٢ .
(٢) إرشاد العقل السليم ٢٦١/٤ بهامش الرازي .
(٣) الكشاف ٦٦/٢ .
(٤) مفاتيح الغيب ٦٥٢/٦ .
(٥) التحرير والتنوير الأعراف ص١٢ .
(٦) البحر المحيط ٦٦/٤ .

وذلك مما لا يناسب التشريف السابق في قوله : ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ ولعل النظام النحوي للمطلع هو الذي نبه البقاعي ـ رحمه الله ـ لبيان مهمة هذا الاعتراض فنظام النحو هاهنا قاض بأن مهمة الكتاب (الذي يراد به السورة) الإنذار وذلك لما يظهر من أن قوله : ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ . . . ﴾ متعلق بقوله : ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ فليست قضية السورة في الإنزال ، وإنما هي في الإنذار تدبر قول البقاعي « ولما كان المقصود من البعثة أولا النذارة للرد عما هم عليه من الضلال وكانت مواجهة الناس بالإنذار شديدة على النفوس ، وكان الإقدام عليها من الصعوبة بمكان عظيم ، قدم قوله ـ مسببا عن تخصيصه بهذه الرحمة ـ ﴿ فَلَا يَكُن . . . ﴾ »[1] .

ولا أرفع للحرج ، ولا أعون على الإنذار من بيان أحوال السابقين وبيان جزاء الطائعين ، وعاقبة المستكبرين ، وقد مهد النظم المعجز ـ بعد هذا المطلع العجيب ـ لهذا السبيل (قصص النبيين وبيان أحوال أقوامهم) بعدة جمل تتصل بالمطلع ، ويتناغى معها كثير من تراكيب السورة .

فقد جاء بعد المطلع قوله : ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ . . . ﴾ (الأعراف:٣) تنفيذا للإنذار ، مع ملحظ مهم ، هو أن الإنزال هاهنا مخصوص بهم دفعا لإيهام ما قد يظن من التركيب الأول ـ ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ ـ من اختصاصه ﷺ بالإنزال ، لذلك ذكروا أن هذه الآية « بيان لجملة ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ ﴾ بقرينة تذييلها بقوله : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ »[2] ، مع ملحظ آخر هو قوله : ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ومشاكلته للتركيب الأول ، وما في ذكر الربوبية من معاني الإنعام ، تناسبا مع مقصود السورة (الإنذار

---

(١) نظم الدرر ٣٤٨/٧ .

(٢) التحرير والتنوير الأعراف ص١٤ .

والتذكير) ولما كان هذا المقصود يتوصل إليه بسرد أحوال السابقين على وجه لا يكون في مقصود آخر مهد لذلك بقوله : ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ (الأعراف:٤) وما ينبئ به مطلع الآية من التكثير بكم الخبرية ، وما في الإهلاك من التنبيه على أن المذكور في السورة من الإهلاك أزجر وأنذر منه في المواضع الأخرى من الذكر الحكيم ، ووجدت أصداء هذا التركيب في كثير من تراكيب السورة الكريمة ، وكان من صداه قوله تعالى ـ بعد ذكر كثير من القصص ـ : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ (الأعراف:٩٧-٩٩) مع ملحظ مهم هو أن التركيب الأول مع التركيبين الآخرين دون الثالث مما لم يجر في سورة أخرى ، وما في الاستفهام التوبيخي المتتابع من كشف تحسر الهالكين ، وذلك تجاوبا مع أصداء التركيب الأول الذي جاء فيه قوله : ﴿ أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ «وفى التعبيرين مبالغة في غفلتهم وأمنهم من العذاب ، ولذلك خص الوقتين ، ولأنهما وقت دعة واستراحة ، فيكون مجيء العذاب فيهما أفظع»[1] .

وهذا التوبيخ المتتابع يتناغى أيضا مع قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴾ (الأعراف:٥) .

فذلك الاعتراف الذي ذكر في أول السورة ، ترجمت عنه تراكيبها ، فكان الاستفهام التوبيخي مع غيره من التراكيب كاشفا عن هذه الحسرة وتناغي التراكيب بهذه الهيئة للكشف عن وحدتها البيانية وكان هذا أمر

(١) البيضاوي ٣٤٢/١ .

عذاب الدنيا فجاء بعده الوعيد بعذاب الآخرة فذلك قوله : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأعراف:٦) .

وذلك التركيب لم يوجد في سورة أخرى ، تدبر علاقته بمطلع السورة ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ ﴾ ولا تحرج لأنك ستسأل ، وتدبر ما في الفعل من توكيد بلام القسم والنون المؤكدة وتساوي المُنْذَرِين والمُنْذِرِين في المساءلة ، تدبر في ضوء ذلك أيضا وجه اختصاص السورة بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف:١٧٢)، تدبر هذا في ضوء الوعيد بالمساءلة ، ثم تدبر ما في هذه الآية من تكرار الربوبية وعلاقته بقوله : ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ .

ثم يأتي بعد ذلك قوله : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ (الأعراف:٧) مع وعينا بما في تتابع هذه الفاءات من تصوير لتتابع الإهلاك في قصص هذه السورة ، وما في ذلك من تصوير للوعيد .

وحسبك أن يؤكد الحق الخبر بلام القسم والنون المؤكدة ، وما في ذلك من اتساع دائرة الإنذار ، وما يفضي إليه من تصوير العذاب ؛ لذلك جاء القصص بعليهم دون لهم ، فالقصص حجة عليهم ، تصويرا لقوة الحجة ، وتوعدا للمخالفة ، وحسبك هذا القيد ﴿ بِعِلْمٍ ﴾ وما في تنكيره من التفضيل والتعظيم ، وما أكدته الجملة بعد ﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ مما يصور لنا أن هذا السبيل هو أقوى السبل للإنذار الذي هو مقصود هذه السورة ، لذلك كانت هذه التراكيب من خصائص هذه السورة ، كما أن التوسيع في تفصيل القصص خصيصة هذه السورة الكبرى .

ثم جاء ذكر الميزان في إطار الإنذار ، وجاء قوله : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف:٩) وهو يتناغى مع قوله قبل : ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ ، وجاء التمهيد للقصص أيضا متناغيا مع الربوبية المستوجبة الشكر في مطلع السورة ، ومتناغيا مع ما في تراكيب قصص الأنبياء وذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (الأعراف:١٠) ، فهو يتناغى مع كثير من تراكيب السورة ناهيك بقول إبليس : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٧) .

جاءت تراكيب قصص النبيين في السورة وغيرها من الأغراض في هذه الأطر التي ذكرناها في المطلع ، وفي التمهيد للسبيل الأعظم الذي أجمله المطلع ليقدم لنا مقصود السورة مجملا في أول السورة . وكان ما مضى من أمر المطلع والتمهيد استبصارا لكلام ابن الزبير ـ رحمه الله ـ فقد حاولنا التماس النور في قوله : « فتأمل افتتاح سورة الأعراف بقوله تعالى : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾ (الأعراف:٧) ، وختم القصص فيها بقوله تعالى : ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٥) بعد تعقيب قصص بنى إسرائيل بقصة بلعم ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ﴾ ثم قال : ﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ (الأعراف:١٧٦) .

وكيف ألحق من كَذَّب رسول الله ﷺ من العرب وغيرهم ممن قص ذكره من المكذبين ، وتأمل افتتاح ذكر الأشقياء بقصة إبليس وختمها بقصة بلعم ، وكلاهما ممن كفر على علم ، وفي ذلك أعظم موعظة . قال تعالى إثر ذلك : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾ (الأعراف:١٧٨)[1] .

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ص٩٨ .

وكان جريان القصص في السورة بهذه الهيئة ـ عند ابن الزبير ـ علة لتركيب مطلع السورة ، لذلك قال بعد هذا البيان : « فبدأ ـ سبحانه ـ بذكر ما أنعم به عليه ، وعلى من استجاب له فقال تعالى : ﴿ **الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ** ﴾ فأشار إلى نعمته بإنزال الكتاب ، الذي جعله هدى للمتقين وأشار هنا إلى ما تحمله من التسلية وشرح الصدور بما حوى من العجائب والقصص مع كونه هدى ونورا فقال : ﴿ **فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ** ﴾ أي أنه قد تضمن مما أحلناك عليه ما يرفع الحرج ، ويسلي النفوس ، ﴿ **لِتُنذِرَ بِهِۦ** ﴾ كما أنذر من قبلك ممن نقص خبره من الرسل ، ولتستن في إنذارك ودعائك وصبرك بسنتهم وليتذكر المؤمنون »[1] .

ويقول كاشفا الفرق بين قصة بنى إسرائيل هنا وفي البقرة : « ومن عجيب الحكمة أن الواقع في السورتين من كلا القصتين مستقل شاف »[2] . أي يتناسب مع مقصود السورة التى يذكر منها ، وكلامه إحالة لبيان وجه الاختصاص .

وعجيبة في هذه السورة نذكرها اهتداء ببصائر الأئمة واستبصارا بنور المطلع الذي لحظته أن هذه السورة تولى صفة الاستكبار اهتماما لم تحظ به سورة أخرى في الذكر الحكيم وتجعلها أم الأسباب في الكفر ، ويتكرر ذكر هذه الصفة بجانب الكافرين تكراراً غير معهود في سورة أخرى ، ولعل التكبر أعظم الأسباب في الإحجام عن الإنذار ، وأعظم أسباب الضيق والحرج .

تدبر ما أذكر من الآيات في ضوء الاعتراض المذكور في المطلع ، تجده من أعون شيء في رفع الحرج . وكان للتكبر في هذه السورة عاقبتان،

(١،٢) البرهان في تناسب سور القرآن ص٩٩ .

الطرد من الجنة والصغار قال تعالى مخاطبا إبليس : ﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٣) ، وقال بعد ذلك : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (الأعراف:٣٦) وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ (الأعراف:٤٠) ، مع ملحظ مهم هو أن هذه التراكيب لم تقع في غير هذه السورة ، وقد جاء على لسان الأعراف ـ أدل شيء على الإنذار كما قال البقاعي ـ قولهم لأهل النار : ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ (الأعراف:٤٨) .

وجاء قصص النبيين مبرزا بتراكيبه أن سبب الكفر الاستكبار ، قال القرآن عن ثمود قوم صالح : ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ... ﴾ (الأعراف:٧٥) وقولهم : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ (الأعراف:٧٦) ثم قول قوم شعيب : ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ (الأعراف:٨٨) ، وفي قوم فرعون قال ربنا : ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴾ (الأعراف:١٣٣) .

ثم عقوبة للمستكبرين تتفرد بها هذه السورة ، وتتناسب مع ما أعقبته من القصص وما في تراكيبها من الوعيد يناسب الإهلاك . قال تعالى : ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ

﴿ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (الأعراف:١٤٦)، يتدبر هذا مع آية إبليس في التكبر وذلك مما لا نظير له في سور الذكر الحكيم .

تدبر في سياق الاستكبار هذين التركيبين اللذين لم يرد مثلهما في تراكيب قصص النبيين في الذكر الحكيم ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ... ﴾ (الأعراف:٦٣)، وقول هود : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ . . . ﴾ (الأعراف:٦٩) .

وعلة قوله : ﴿ مِّنكُمْ ﴾ في الموضعين التذكير بتساوي الخلق ، وفي ذلك تقريع على الاستكبار ، مطية الكفر ، وفي تذكير النبي بذلك تسلية ورفع للحرج .

يتدبر كل ذلك في نور الاعتراض المذكور في مطلع السورة . ألم تر إلى قولهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف:٣١) ذلك الاستكبار من أعظم أسباب الحرج ، وتصرف معانيه وعقوباته ونسبته الكفر إليه كان سلكا انتظم هذه السورة من بداية المطلع إلى آخر آية في السورة تلك التي تنظر إلى قصة إبليس واستكباره ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ (الأعراف:٢٠٦) . وذلك السجود علامة العبودية ، وسيما الخضوع والانقياد ، يقابل هذا الذي هو علامة التكبر والعصيان جمعت هذه المعاني هذه الآية التي في نهاية السورة وتدبر التقديم ﴿ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ .

تلك لطيفة من لطائف الذكر الحكيم ، وقصص النبيين أعظم السبل في الكشف عن مقصود هذه السورة ، وتحضرنا مقالة البقاعي في أن اختلاف

نظوم القصص يتغاير بتغاير مقاصد السور ، وأقرب الأبواب في الكشف عن ذلك مشتبه النظم ، وتفرد السورة بحلقات من القصص المذكورة في مواطن أخرى .

من ذلك أنك لن تجد في القرآن في قصة إبليس مثل قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴾ (الأعراف:١٨) ، وقد جاء هذا التركيب متشاكلا مع جريان القصص في السورة ، وقد وقع هذا ـ كما قال تاج القراء ـ « لأنه ـ سبحانه ـ لما بالغ في الحكاية عنه بقوله : ﴿ لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ ﴾ بالغ في ذمه فقال : ﴿ ٱخۡرُجۡ ﴾ والذأم أشد الذم)[1] .

والمبالغة تناسب مقصود السورة ، وتناسب سلك الاستكبار وعواقبه ، الذي ينتظم كثيرا من قصص النبيين ، والمبالغة في الحكاية عن إبليس من خصائص هذه السورة ، تدبر قوله : ﴿ لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٦،١٧) .

ولن تجد كهذه الآية في القرآن الكريم ، تدبر ما في القعود من التفرغ للشيء وما في ذكر هذه الجهات من الإحاطة المتناسبة مع القعود المذكور في مطلع قوله ، ثم اصطحب هذا المعنى الذي قاله ذلك المستكبر في كلام المستكبرين في السورة تجد صداه واضحا ، تدبر قول شعيب عليه السلام لقومه المستكبرين : ﴿ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (الأعراف:٨٦) . وقابل بين قوله في الإتيان من كل جهة ، وقول شعيب بكل صراط ، واستقرئ ذلك في الذكر الحكيم .

---

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن ص٨٠ .

وتدبر هذه الاستعارة ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ (الأعراف:٢٢) واختصاصها بالسورة ، لاختصاص السورة بالمبالغة في الحكاية عن إبليس وفي توعده ، إتيان بني آدم من كل وجه ، وما تطويه هذه الاستعارة من التفنن في التغرير ببني آدم المتناسب مع القعود والتفرغ فقد «شبه حالهما حين سقطا في المخالفة بعد المحاولات ، والأيمان التي أكد بها نصحه وإخلاصه ، بحال من يتدلى من الأعلى إلى الأسفل وهو مخدوع مغرور لا يدري أنه يسقط ، وانظر إلى كلمة (دَلاهُمَا) وكيف تصف الهبوط من المعارج السامية إلى المهاوي الدانية ، وانظر إلى كلمة ﴿ بِغُرُورٍ ﴾ وكيف أضاءت حول تلك الحالة النفسية التي تصحب الاستواء والمخالفة»[1].

وذلك يتناسب مع هذا التحذير في قوله : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ (الأعراف:٢٧) ، وما في نداء بني آدم من التنبيه لهم بمسالك الذي توعد أنه سيقعد لهم بكل صراط .

ويبدو أن نداءات بني آدم من خصائص هذه السورة ، لأن أكبر خصيصة لها التوسع في قصص النبيين ، لأن مقصودها الإنذار المذكور في مطلعها ، فقد وقعت نداءات بني آدم في أربعة مواطن ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا ﴾ (الأعراف:٢٦) و ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ (الأعراف:٢٧) و﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ ﴾ (الأعراف:٣١) و ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ ﴾ (الأعراف:٣٥) وذلك يتناغى مع العهد المذكور في آخر السورة ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ﴾ (الأعراف:١٧٢) ولم يقع نداء

(١) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان ص٣٢٠ دكتور محمد أبوموسى ، مكتبة وهبة .

لبني آدم إلا في سورة يس ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ (يس:٦٠) .

كل ذلك في إطار تفصيل المبالغة في ذم إبليس ، للمبالغة في الحكاية عنه وأنت خبير بتناسب النداءات مع مقصود السورة (الإنذار) المذكور في مطلعها .

وللبقاعي ـ رحمه الله ـ كلمات في مشتبه النظم ـ ذلك المعلم الدال على وحدة السورة البيانية ، تتصل بمقصود السورة .

يقول : مقارنا بين قوله في قوم لوط هنا ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (الأعراف:٨١) وقوله : في النمل ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (النمل:٥٥) ـ (ولما كان مقصود هذه السورة الإنذار كان الأليق به الإسراف الذي هو غاية الجهل المذكور في سورة النمل ، فقال : ﴿ مُّسْرِفُونَ ﴾[1] تدبر هذا مع ضميمة ـ ما ذكره تاج القراء في المبالغة في ذم إبليس كما مضى .

ويقول : ـ رحمه الله ـ كاشفا عن سر اختصاص آية الصلب بحرف التراخي في سورة الأعراف في قوله ﴿ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ ﴾ (الأعراف:١٢٤) ولما كان مقصود هذه السورة الإنذار فذكر فيها ما وقع لموسى عليه السلام والسحرة على وجه يهول ذكر ما كان من أمر فرعون على وجه يقرب من ذلك ، فعبر بحرف التراخي ، لأن فيه ـ مع الإطناب الذي يكون شاغلا لأصحابه عما أدهشهم مما رأوه ـ تعظيما لأمر الصلب ، فيكون أرهب للسحرة ، ولمن تزلزل بهم من قومه فقال : ﴿ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ ﴾[2] ، وفي استكشاف هذه الدقائق ما ترى من المشقة ، مما صرف العلماء عنها وكثيرا ما رموا

(١) نظم الدرر ٤٥٥/٧ .

(٢) نظم الدرر ٣٢/٨ .

الباحث عنها كمثل البقاعي بالتكلف ، والأمر كما ترى ظاهر المقنع لمن تدبر وأبصر .

ومن ذلك أيضا قوله : في بيان الوجه في تقديم الحواس في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ (الأعراف:١٧٩) ـ « ولما كان السياق للتفكر بدأ بالقلوب »[1] ، وهذا النظم متخالف في الترتيب مع قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان:٤٤) .

ومما استبصره بنور المطلع أيضا قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف:١٨٥) قال : « ولما كان قد تقدم في أول السورة النهى عن التحرج من الإنذار بهذا الكتاب ، وبان بهذه الآيات أنه ﷺ اتصف بالإنذار به حق الاتصاف ، وبان أن القرآن مباين لجميع المخلوقات ، فثبت أنه كلام الله تسبب عن ذلك الإنكار على من يتوقف عن الإيمان به . . . . وذلك في أسلوب دال على أن الإيمان بعد هذا البيان مما لا يسوغ التوقف فيه إلا لانتظار كلام آخر فقال : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ ﴾ . . . »[2] .

فقد كان ـ رحمه الله ـ مستحضرا مقصود السورة في كل تركيب ، ونحاول نحن أن نستخرج من كلام الكرماني في المشتبه من النظم ما له علاقة بالمطلع فهو يقوله في الكلام على الفرق بين قوله تعالى هنا : ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (الأعراف:٧٣)، وقوله في هود : ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ (هود:٦٤). وقوله في الشعراء :

(١) نظم الدرر ١٧٣/٨ .

(٢) نظم الدرر ١٨٢/٨، ١٨٣ .

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ (الشعراء:١٥٦) يعلل لذلك فيقول : «لأنه في هذه السورة بالغ في الوعظ فبالغ في الوعيد»[١] كأن استفراغ المجهود في الوعظ يستوجب شدة الوعيد ، والمبالغة في الوعظ تناسب سورة الإنذار ذلك المقصود المجمل في مطلعها . ويعلل لاختلاف النظم بين الإخبار عن قوم صالح هنا ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾ وفي سورة هود ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾ (هود:٦٧) فيرى أن القرآن الكريم «حيث ذكر الرجفة وَحَّدَ الدار ، وحيث ذكر الصيحة جمع ، لأن الصيحة كانت من السماء ، فبلوغها أكثر وأبلغ من الزلزلة فاتصل كل واحد بما هو لائق به»[٢] . والسؤال هو لم ذكر الرجفة هنا وذكر الصيحة في غيرها قبل الإجابة على الجمع والتوحيد؟ ولأنه أرجع العلة في الفرق لما ينبغي أن يعلل له ، ولأجل هذا الاستعمال فسر العلماء الرجفة بالصيحة وفسروا الدار بالبلد[٣] .

غير أن أبا السعود استبصر وجها آخر في الفرق بين الصيحة والرجفة فقال : «ولعلها من مبادئ الرجفة ، فأسند هلاكهم إلى السبب القريب تارة ، وإلى البعيد أخرى»[٤].

وهذه السورة أولى بذكر الرجفة ، لأنها سورة الإنذار ، والتعبير بالرجفة يتناغى مع قوله في أول السورة : ﴿ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا ﴾ كما مضى

---

(١) البرهان للكرماني ص٨٤ .

(٢) البرهان للكرماني ص٨٥ .

(٣) يراجع في ذلك : جامع البيان ١٦٤/٨، والكشاف ٩٠/٢، والجامع لأحكام القرآن ٢٧٥٧/٣، ٢٧٥٨ .

(٤) إرشاد العقل السليم ٣٨٤/٤، والفتوحات الإلهية ١٦٦/٢ .

ذكره في التمهيد للقصص ويؤيد ما قاله أبو السعود قول ابن كثير «وجاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح»[1] .

وهما يستندان فيما ذكراه إلى ما قاله ابن عباس وغيره (من أن الله فتح عليهم بابا من جهنم ، فأرسل عليهم حرا شديدا . فأخذ بأنفاسهم ، فلم ينفعهم ظل ولا ماء ، فدخلوا في الأسراب ، ليبردوا فيها ، فوجدوها أشد حرا من الظاهر فخرجوا هاربين إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابة فيها ريح طيبة باردة فأظلتهم ـ وهى الظلة ـ فوجدوا لها بردا ونسيما ، فنادى بعضهم بعضا حتى إذا اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ، ألهبها الله عليهم نارا ورجفت بهم الأرض من تحتهم ، فاحترقوا كاحتراق الجراد في المقلى ، وصاروا رمادا)[2].

فكان المتناسب مع الإنذار ذكر الرجفة وإفراد الدار .

وقال الكرماني في بيان الفرق بين قوله تعالى في البقرة : ﴿ **فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ** . . . ﴾ (البقرة:٥٩) وقوله في سورة الأعراف ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ** . . . ﴾ (الأعراف:١٦٢) «لأن لفظ الرسول والرسالة كثرت في الأعراف ، فجاء ذلك وفقا لما قبله ، وليس كذلك في سورة البقرة»[3] ، وإنما كثر لفظ الرسول والرسالة دالين على التكليف في هذه السورة تناسبا مع الإنذار الذي هو مقصود السورة المجمل في مطلعها ،

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٩٩/٢ .

(٢) الفتوحات الإلهية ١٦٦/٢ .

(٣) البرهان للكرماني ص٣٠ .

وقد وقع ذلك في مواطن كثيرة من السورة الكريمة[1] بما يمكن أن يعد من خصائصها بوجه من وجوه الاستعمال .

وفي ضوء ذلك قارن بين قوله تعالى في الأعراف ﴿ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ ﴾ (الأعراف:١١١) وقوله في الشعراء : ﴿ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ ﴾ (الشعراء:٣٦) فعلل قائلا : « لأن الإرسال يفيد معنى البعث ، ويتضمن نوعا من العلو ، لأنه يكون من فوق فخصت هذه السورة به لما التبس ، ليعلم أن المخاطب به فرعون دون غيره »[2] ، وذلك النوع من العلو يتناسب ونمط الاستكبار الذي ذكرناه من قبل ، ويأتي الحديث عن الشيطان في آخر السورة متناغيا مع ما ذكر في أولها من المبالغة في التحذير ، وذلك يظهر في إدارة لغة السورة في قصة الشيطان في مطلعها .

ويأتي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأعراف:٢٠٤) كاشفا عن السبيل الموصلة إلى تنفيذ أمر الله في مطلع السورة الكريمة ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف:٣) مع مراعاة أن بناء جملة الشرط هذه لم يقع في سورة أخرى ، ولم يجمع بين الأمرين (الاستماع والإنصات) في غير هذه السورة ، لأن الاستماع والتدبر يدلان المسلم وغيره على الرشاد والهداية المستوجبين الرحمة ، وما أحسن موقع هذه الآية التي جاءت في ختام الحديث عن الهالكين .

* * *

(١) سورة الأعراف الآيات : ٦، ٣٥، ٣٧، ٤٣، ٥٣، ٥٧، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٧، ٦٨، ٧٥، ٧٧، ٧٩، ٨٧، ٩٣، ٩٤، ١٠١، ١٠٤، ١٠٥، ١١١، ١٣٣، ١٣٤، ١٤٤، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٢ .

(٢) البرهان في توجيه متشابه القرآن ص٨٩ .

الفصل الرابع

سورة يونس

لا يطلق البلاغيون الجزء على الكل إلا أن يكون للجزء مزيد اختصاص فيما يدل عليه الكل ، وعجيب أمر هذه السورة فلو سميت بسورة موسى ، لكان بسط قصته هنا تعليلا للتسمية ، والعجب أن جاءت قصة يونس في آية واحدة ، وفي آخر هذه السورة قال تعالى : ﴿ **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ (يونس:٩٨) .

كانت هذه الآية من قصة يونس التي سميت بها السورة كاشفة عن مقصود السورة عند البقاعي ، مع ضميمة استنباطه للمقصود من مطلع السورة قال : ـ رحمه الله ـ في مقصود السورة «ومقصودها : وصف الكتاب بأنه من عند الله ، لما اشتمل عليه من الحكمة ، وأنه ليس إلا من عنده ـ سبحانه ـ لأن غيره لا يقدر على شيء منه ، وذلك دال بلا ريب على أنه واحد في ملكه ، لا شريك له في شيء من أمره ، وتمام الدليل على هذا قصة قوم يونس عليه السلام بأنهم لما آمنوا به عند المخايل كشف

عنهم العذاب فدل قطعا على أن الآتى به إنما هو الله الذي آمنوا به ، إذ لو كان غيره ، لكان إيمانهم به ـ سبحانه ـ موجبا للإيقاع بهم ، ولو عذبوا كغيرهم ، لقيل : هذه عادة الدهر . . . . ودل ذلك على أن عذاب غيرهم من الأمم ، إنما هو من عند الله لكفرهم ، لما اتسق من ذلك طردا بأحوال سائر الأمم من أنه كلما وجد الإصرار على التكذيب ، وجد العذاب وعكسا من أنه كلما انتفى في وقت يقبل قبول التوبة انتفى »[1] .

ومقصود السورة ـ على ما ذكر البقاعي ـ يجمله قوله تعالى : ـ ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ۝٢ ﴾ (يونس:١، ٢) .

وقد تقاربت الآية الأولى من المطلع مع مطلعي سورتي (يوسف ولقمان) وكان هذا التقارب داعيا ابن الزبير لاستكشاف علل للفروق الدقيقة التي وقعت في هذه المطالع فهو يعلل لوصف الكتاب بـ﴿ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ في هاتين السورتين ، وبـ ﴿ ٱلۡمُبِينِ ﴾ في سورة يوسف ، بما اشتملت عليه كل سورة من معان وآيات ، وهذا الذي يذكره ينبهنا إلى أن المطالع تختلف لاختلاف المقاصد ، وتتقارب في تراكيبها وفي لغتها بقدر ما تتقارب المقاصد . يقول : ـ رحمه الله تعالى ـ « والجواب ـ والله أعلم ـ أن سورتى يونس ولقمان تردد فيهما من الآيات المعتبر بها المطلعة على عظيم حكمته .... ما لم يرد في سورة يوسف كقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ . . . ﴾ وقد تبع الآية المذكورة من سورة يونس ما يجاريها في التنبيه بما به الاعتبار . . . لم يتخللها ما يخرج عن باب الاعتبار من حكم أو غيره ،

(١) مصاعد النظر ١٦٤/٢ .

ولا من القصص إلا ما تضمن اعتبارا كالوارد من قصة نوح . . ولم يرد هذا الضرب المقتضب من قصة نوح عليه السلام على هذه الصفة في غير هذه السورة لما قدمنا ذكره ، ولم يكن ليناسب ما يثبت عليه السورة غير هذا الوارد ، وأما سورة لقمان : فورد فيها قوله تعالى : ﴿ **خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ** . . .﴾ إلى قوله : ﴿ **هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ** . . . ﴾ وفي هذه السورة ما منح لقمان من الحكمة ، ولم تخرج آى هذه السورة عن هذا ، فهذا وصف الكتاب في هاتين السورتين بالحكيم . . . وأما سورة يوسف عليه السلام فلم تنطو على غير قصته . . . فلهذا أتبع الكتاب بالوصف بالمبين»[1] .

وما ذكره ـ رحمه الله ـ من اختصاص هاتين السورتين بالاعتبار يدفعه ما يوجد في كثير من السور من آيات الاعتبار من غير المفتتحة بهذا المطلع ، ويمكن أن يجاب عنه ـ بأن آيات الاعتبار التي لم تخل منها سورة تكون في كل موضع في قيد ما سيقت له السورة ، فهى ـ مع كثرتها وشيوعها في الذكر الحكيم ـ تنال التخصيص والتحديد بمواضع سياقاتها ، وتوحي بهذا التخصيص دلالة التراكيب واستكشاف ذلك في الذكر الحكيم ، باب لا يحاط به .

وقد استوقفه ـ رحمه الله ـ أيضا المفارقة الواقعة في الحروف المقطعة ﴿ **الٓمٓ** ﴾ ﴿ **الٓر** ﴾ في لقمان ويونس ، وأرجع العلة في وقوع هذا الفرق لاشتمال سورة لقمان على آيات الاعتبار ، أكثر مما اشتملت عليه سورة يونس ، وعلل لوجود الراء دون الميم في مطلع سورة يونس ، باشتمال يونس على معاني الربوبية،وبتكرر اسم الرب فيها في بضعة عشر موضعا، وبتكرر حرف الراء فيها في مائتين وعشرين كلمة أو نحوها[2] .

---

(١) يراجع ملاك التأويل ٦٠٦/١، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦٠٩ .

(٢) يراجع ملاك التأويل ٢٠٩/١، ٦١٠، ٦١١، ٦١٢ .

فلست أدرى أيرجع ما ذكره إلى خصوصية في الميم وفي الراء؟ ولئن كان كذلك فينبغى أن يقال هذا في كل سورة افتتحت بالحروف المقطعة ، وضمنها هذان الحرفان أو أحدهما ، على أى حال فبحسبه أنه نبهنا إلى استخراج أسرار دقائق التراكيب في المطالع ، من أسرار تراكيب المقاصد . والأمر ـ كما ارتضينا من كلام الأئمة ـ في الحروف المقطعة يرجع إلى التحدى ، وهذا لا يمنع وجود هذه الإشارات .

والذي قرره برهان الدين من مقصود السورة ، تسانده آراء المحدثين وشىء آخر هو أن ذات التراكيب تدل على صحته ، ودائما يخلد ويبقى ما استنبط من ذات التراكيب في الذكر الحكيم ، واستكشاف المقصود وتحديده ، هو الذي يهدينا إلى استبصار النمط البياني الذي جاء لهذا المقصود ، ولم يجئ لغيره ، ودونك كلام المحدثين النظري في هذا الذي ذكرت .

يقول الأستاذ سيد قطب ـ بعد بيان أن السورة ينتظمها غرض واحد من المطلع إلى الختام «الترابط في سياق السورة حين يوجد بين مطلعها وختامها فيجىء المطلع في قوله تعالى : ﴿ الٓر . . . ﴾ ويجىء الختام في قوله : ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ . . . ﴾ فالحديث عن قضية الوحي ، هو المطلع وهو الختام ، كما أنه هو الموضوع المتصل الملتحم بين المطلع والختام»[1] .

ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب عند قوله تعالى : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ . . . ﴾ «بهاتين الآيتين تختم السورة الكريمة ، فيجىء ختامها متلاقيا مع مبدئها ، ويكون ما بين البدء والختام عرضا شارحا لمضمون

(١) في ظلال القرآن ١٧٥٢/٣ .

البدء والختام (ثم يقول) ثم تختم السورة بهاتين الآيتين بهذا الإعلان العام الذي بدأت به ، فتصل منه ما انقطع . الحق من ربكم ، وهو هذا الكتاب الحكيم»[1] .

ويقرر الشيخ عبد المتعال الصعيدي أنه «يقصد من هذه السورة تنزيل الكتاب ، وهي في هذا تنقسم إلى أربعة أقسام أولها : في إبطال شبههم عليه ، وثانيها : في تحديهم به ، وثالثها : في دعوتهم إلى تصديقه بطريق الترغيب والترهيب ، ورابعها : في خاتمة تناسب مقام هذه السورة»[2].

ويكشف لنا الإمام محمد عبده عن خصيصة لهذه السورة فيقول : «وسورة يونس كسورة الأنعام في السورة المكية ، إلا أنها أكثر منها ، ومن سائر السور إثباتا للوحى والرسالة ، وتحديا بالقرآن وبيانا لإعجازه»[3].

وتراكيب مطلع السورة هي نور بيان المقصود من السورة ، الآية الأولى من المطلع لا تشير إلى مقصود السورة ـ لاسيما إذا ارتضينا أن معنى الكتاب السورة على ما ذكر جار الله[4] ـ وإنما تشير إلى أن الآيات الواردة في السورة من الحكمة بمكان في الكمال ، وهي بذلك العموم تثير سؤلا مؤداه ما الداعي إلى إيراد هذه الإشارة إلى آيات السورة؟ لذلك جعل العلامة ابن عاشور الآية الثانية ﴿ **أَكَانَ** . . . ﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا ، للإبهام الذي اشتملت عليه الآية الأولى ثم قال : «ولك أن تجعله استئنافا ابتدائيا ،

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ١١/١٠٩٦، ١٠٩٧ .
(٢) النظم الفني في القرآن ، ص١٣٧ .
(٣) تفسير المنار ١١/٤٩٤ .
(٤) الكشاف ٢/٢٢٤ .

لأنه مبدأ الغرض الذي جاءت له السورة ، وهو الاستدلال على صدق الرسول وإثبات البعث»[1].

قضية السورة إذن في هذه الآية في اسم كان وخبرها ومتعلقاتهما ، وما يدل عليه اسم كان هو قطب السورة ، وخبرها ومتعلقات كل منهما من مقتضيات ما دل عليه اسم كان ، وهي قضايا تتشابك تشابكا ولغة تكتنز المعاني اكتنازا ، ثم تنتشر بياناتها داخل السورة ، ولا تتكشف خصائصها البلاغية إلا بنور هذا المطلع الذي يجمل الغرض والمقصود من سياقه كل آية ، ففي كل آية من السورة صدى من مطلعها يهدي إليه أهل البصر والبصيرة ، وآية المطلع تقدم خبرها على اسمها ﴿ عَجَبًا ﴾ وجاء مسبوقا باستفهام تعجبي ، فتواردت دلالتان على شدة إنكار الكفار . إحداهما بالفحوى (همزة الاستفهام التعجبي) والثانية باللفظ ﴿ عَجَبًا ﴾ ، تنبيها إلى أن بيان هذه السورة سيكون في شغل ببسط هذه الحجج التي دفعت إلى هذا العجب وإشارة أيضا إلى أن رد هذه الحجج سيكون ملائما لهذا الإنكار المتعاظم ، إذ الردود ستكون مما يلامس واقعا ، ويعايش دائما من حياة المتعجبين ، ومن تصرفاتهم بأنماط بيانية خاصة بهذه السورة ، يدلك على شدة تعجب الكفار أيضا تقديمه ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ والتعبير باللام دون (عند) يدل على (أنهم) جعلوه لهم أجوبة يتعجبون منها ، ونصبوه علما لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم ، وليس في (عند الناس) هذا المعنى»[2] وفي تقديم الخبر أيضا تنبيه إلى الاهتمام به والعناية بتفصيله ، وتأخير اسم كان الذي هو المقصود ، فيه إشارة إلى أن اهتمامات السورة ليست فيه ، وإنما فيما يثار حوله من شبهات وحجج .

---

(١) التحرير والتنوير ٨٣/١١ .

(٢) الكشاف ٢٢٤/٢ .

وكأن دلالة التركيب في قوله ﴿ أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ مشيرة إلى أمرين أولهما : صدق الوحي ، لأنه من الله ، وصدق الرسول الذي جاء به ، وهذان الأمران هما متعلق الإنكار ومثار التعجب ، واكتنز هذا التعبير أول شبهة للكافرين في الموحى إليه (النبي ﷺ) بقوله : ﴿ مِّنْهُمْ ﴾ فقد كانت تلك أول شبهة للكافرين في الوحي كما صرح بذلك الذكر الحكيم في مواطن متعددة .

ثم جاء قوله : ﴿ أَنْ أَنذِرِ . . . ﴾ ليكشف طريقي الدعوة إلى هذا الوحي (الترهيب والترغيب) لتجنب تبعات الطريق الأول (العذاب) واغتنام مقتضيات الطريق الثاني (الثواب) ، وبيان هذين الطريقين كأنه رد لإنكار الناس الوحي والموحى إليه ، إذ هي دعوة لاغتنام الخير وإبعاد الشر ، ولا ينبغي أن ينكر على من يدعو لهذا الطريق ، وإنما ينبغي أن يتوجه الإنكار إلى من ينكر ذلك ، إذ لا ينكر الدعوة إلى الخير إلا مدخول في عقله ، فالدعوة إلى الخير هي روح الوحي ، وذلك يكشفه اعتبار أن (أن) تفسيرية ، لأنه لا يسوغ اعتبارها كذلك إلا إذا كان الوحي متضمنا معنى القول وهو كذلك .

ثم جاء في المطلع شيء من تفسير تعجب الكافرين وإنكارهم ﴿ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ وقد جاءت بدون عاطف لأنها وقعت من قوله تعالى : « ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ ﴾ . . . موقع بدل الاشتمال »[1] أو شبه كمال اتصال ، لكونهما « استئنافا مبنيا على السؤال كأنه قيل : ماذا صنعوا بعد التعجب؟ »[2] ، ومعنى قولهم هذا : أنه أتاهم بما يقطع الأطماع ويقهر

(١) التحرير والتنوير ٨٦/١١ .
(٢) روح المعاني ٦٣/١١ .

القوى والقدر ـ كما يقول شيوخنا ـ رحمهم الله ـ لذلك ادعوا أنه سحر مفترى ، وأن قائله ساحر ، وجاء كلامهم مؤكدا تحسبا لما ينكر عليهم من أنه من لغتهم ومن لسانهم ، وتناسبا مع الإنكار المذكور في أول الآية ، فلغتهم في الإنكار متشابهة ومتقاربة .

وما ذكرناه شيء من نور المطلع ، وبيان لكيفية استبصار البقاعي مقصود السورة وأن ما ذكره ـ رحمه الله ـ من ذات المباني ، وقد علمت موقع المقصود من مطلع السورة ، ولمحاولة الاحتجاج لما رجحناه نذكر بعضا من التراكيب التي اختصت بها السورة دون غيرها ، لبيان تناغيها وتواصلها مع المطلع ، ولمحاولة الكشف عن روح بلاغة هذه السورة . وعلماؤنا كانوا يفسرون السورة ، وأعينهم على مطلعها قال الرازي : رحمه الله ـ في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ . . . ﴾ (يونس:٣) «اعلم أنه ـ تعالى ـ لما حكى عن الكفار أنهم تعجبوا من الوحي والبعثة والرسالة ، ثم إنه ـ تعالى ـ أزال ذلك التعجب بأنه لا يبعد ألبته ، في أن يبعث خالق الخلق إليهم رسولا يبشرهم ... كان هذا الجواب إنما يتم ويكمل بإثبات أمرين : أحدهما : إثبات أن لهذا العالم إلها قاهرا قادرا نافذ الحكم بالأمر والنهى والتكليف .

ثانيهما : إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة ، حتى يحصل الثواب والعقاب اللذان أخبر الأنبياء عن حصولها ، فلا جرم أنه ـ سبحانه ـ ذكر في هذا الموضع ما يدل على تحقيق هذين المطلوبين . أما الأول ، وهو إثبات الإلهية فبقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ . . . ﴾ وأما الثانى (إثبات المعاد) قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾»[1] .

(١) مفاتيح الغيب ٢٤٣/٨، ٢٤٤ .

وقال ابن عاشور في موقع هذه الآية هي : «استئناف ابتدائي للاستدلال على تفرد الله ـ تعالى ـ بالإلهية ، وإنما أوقع هنا : لأن أقوى شيء بعث المشركين على ادعاء أن ما جاء به النبي سحر هو أنه أبطل الشركاء لله في الإلهية»[1] .

وما ذكره الفخر ـ رحمه الله ـ إجمال للإنذار والبشارة ، فقوله : ﴿ **إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا** ﴾ بيان عن محل تحقيق الإنذار والبشارة ، وقوله : ﴿ **إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ** . . . ﴾ تفصيل له ، وإجمال ترى صداه في السورة الكريمة فيما شبهت به الحياة في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا** . . . ﴾ (يونس:٢٤) وفيه دلالة على البعث ونذارة للكافرين بمثل محس واقع كما نبه إلى ذلك المطلع ، وقد جاء تشبيه الحياة مفصلا تفصيلا لم تفصله سورة أخرى يستظهر بمقارنته بنظائره[2] «وقد جاء هذا التفصيل الدقيق ملائما لسياقه متناغيا مع ما ورد في السورة من معان وأساليب ، فالتمثيل جاء مفصلا لدورات حياة النبات ، بدءا من نزول الماء ، واهتزاز الأرض له ، وهو رمز قريب للحمل ، وما أعقبه من أطوار النبات وازدهاره ، ثم يبسه وفنائه هذا كله متلائم ومتناظر مع قوله تعالى في أول السورة : ﴿ **إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ** . . . ﴾ ، وتلوح ظاهرة التفصيل في مفتتح السورة في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ** . . . ﴾ ، وهذا إشارة إلى الأمر الذي بنيت عليه السورة ، لأن فواتح السور تدل على أصول المعاني الجارية فيها ، فالتفصيل باد من ذكر الأيام الستة ، ولم يكتف النظم بذكر خلق السموات

---

(١) التحرير والتنوير ٨٧/١١ .

(٢) يستظهر في المصحف الشريف الآيات : الكهف ٤٥، الحديد ٢٠، الأنعام ٣٢، محمد ٣٦، العنكبوت ٦٤، آل عمران ١٨٥، الرعد ٢٦، غافر ٣٩ .

والأرض فكأن ذكر الأيام إشارة إلى المراحل والأزمنة التي كان فيها التكوين والخلق ، وهذا أيضا متلائم مع التفصيل الموجود في قوله : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ** . . . ﴾ وفي هذا تدقيق وبيان للأطوار طورا بعد طور ، ومنازل القمر تكون منزلة بعد منزلة . . . وهكذا يتناغى التفصيل في التشبيه مع التفصيل المنتشر في السورة وآياتها»[1] . وليس التفصيل بذاته مطلبا تسعى تراكيب السورة إليه ، وإنما الأمر في علة هذا التفصيل ، والأمر ـ كما أرى ـ أن هذا التفصيل في تشبيه الحياة الدنيا جاء تصويرا لمعان سابقة من مثل قوله تعالى : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ** . . . ﴾ (يونس:٢٢،٢٣) والتشبيه من روح هاتين الآيتين ، وهاتان الآيتان وقعتا بعد قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً** . . . ﴾ (يونس:٢١) وهو متشارب من فيض دلالة قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ** . . . ﴾ (يونس:١٢) الذي فصل كل أحوال الإنسان في حركته بما لا نظير له في الذكر الحكيم[2].

وجاء ذلك كله في إطار رد هذه الشبهة ﴿ **وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ** . . . ﴾ (يونس:١١) ، ويمكن أن يكون ذلك بمنزلة بدل الاشتمال من قوله تعالى : ﴿ **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا** ﴾ في المطلع ، وأن تكون هذه الردود من روح قوله تعالى : ﴿ **أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ** ﴾ في المطلع ، فالمذكور كله من الإنذار الواقع الذي يلامسه الفرد والجماعة ، أليست الغفلة عن تدبره مما يقتضي العجب؟!

---

(١) عزاه الباحث محمود حسن مخلوف لشيخنا الدكتور أبو موسى في إحدى جلساته يراجع (طرفا التشبيه القرآني بين السياق والدلالة) رسالة دكتوراه ، ص٢٩ .

(٢) يراجع في المصحف الشريف الآيات : الروم ٣٣، والزمر ٨، ٤٩، وهود ١٠، وفصلت ٥٠ .

فأول شبهة لهم كانت في المطلع ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ﴾ ثانى شبهة ، والشبهة الثالثة هي : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ ... ﴾ (يونس:١٥) والشبهة الرابعة هي : قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ ... ﴾ (يونس:٢٠)[1].

والشبهة الثانية : ﴿ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ... ﴾ هي قطب شبهاتهم في هذه السورة لذلك جاء قصص النبيين في هذه السورة ناظرا إلى هذه الشبهة ، كما سنذكر شيئا منه ، ويقويها قولهم مرة أخرى في قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (يونس:٤٨) الذي عده الفخر الرازى شبهة خامسة وتتناغى التراكيب داخل السورة فقوله : ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ (يونس:٥٠) يتلاءم وقوله : ﴿ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا ﴾ في تشبيه الحياة الدنيا ، وقوله : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ ﴾ (يونس:٥١) يتواصل في رد الشبهة الثانية التي جاءت الآية ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ ... ﴾ مذكرة بها ، ولبيان أن الانتفاع بالإنذار إنما يكون قبل العذاب ، لا عند ظهور مخايله ، ولن تجد في الذكر الحكيم مثل قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ... ﴾ (يونس:٦٤) وتواصله مع قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... ﴾ واضح جدا في سياق الشبهة ، إذ لن يصاب المؤمن بعذاب الدنيا ، ثم جاء ما يدل على إفلاس الكافرين من الحجة من توعدهم النبي ﷺ ذلك ما نَمَّ عنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ (يونس:٦٥) .

---

(١) نبهنا إلى حصر هذه الشبهات الفخر الرازي يراجع في ذلك مفاتيح الغيب ٢٩٤/٨، ٣٠٣، ٣٠٧، ٣١٥، ٣٧٦ .

ورحم الله ـ الفخر الرازي ـ فقد بين مناسبة الآية فقال : «اعلم أن القوم لما أوردوا أنواع الشبهات التي حكاها الله ـ تعالى ـ عنهم فيما تقدم من هذه السورة وأجاب عنها بالأجوبة التي فسرناها وقررناها ، عدلوا إلى طريق آخر ، وهو أنهم هددوه وخوفوه ، . . . والله ـ سبحانه ـ أجاب عن هذا الطريق بقوله : ﴿ وَلَا تَحۡزُنكَ . . .﴾[1] وتواصل هـذه الآية مـع المطلع ﴿ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ أمر ظاهر جدا ، ويفسر في ضوئه وجه اختصاص السورة بهذا التركيب في قصة نوح عليه السلام ﴿ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ (يونس:٧١) وهذا التركيب في الرد على من يتهدد أحدا ، لا نظير له في قصة نوح في الذكر الحكيم ومما جاء في القصة ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا . . . ﴾ (يونس:٧٣) ولم يرد في قصة نوح في سورة أخرى ، وهو هنا ناظر إلى قوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ... ﴾ (يونس:١٤) وهو ناظر إلى قوله : ﴿ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ .

وفى قصة موسى ترى رد الكافرين مشاكلا لرد كفار مكة في قوله تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴾ (يونس:٧٦) ولا نظير لهذا التركيب في قصـة موسى في غير هذا الموضع لذلك كان رده عليه السلام ﴿ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُ ﴾ (يونس:٨١) بما لا نظير له في قصته من الذكر الحكيم ، ويفسر وجه اختصاص السورة بقوله تعالى في قصة موسى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ ﴾ (يونس:٨٤) في نور قوله : ﴿ وَلَا تَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ . . . ﴾ كما يلاحظ اختصاص السورة بأمر الله موسى عليه السلام بقوله : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ وهو ناظر إلى المطلع ، كما يفسر وجه

(١) مفاتيح الغيب ٨/٤٠٥ .

اختصاص السورة بدعاء موسى عليه السلام على قوم فرعون ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ ﴾ (يونس:٨٨، ٨٩) في نور قوله : ﴿ وَلَا تَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ ، ويفسر وجه اختصاص السورة بقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (يونس:٩٠، ٩١) في نور قوله : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (يونس:٥١) في نور قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ (يونس:٤٨) في نور قوله : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ (يونس:١١) في نور قوله : ﴿ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ (يونس:٢) .

كما يفسر وجه اختصاص السورة بالتركيب من قصة موسى عليه السلام ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ (يونس:٩٣) في نور قوله : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس:٨٧) في نور قوله : ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (يونس:٦٤) في نور قوله : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (يونس:٢) .

ويبدو أن قوله تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ (يونس:٩٤) يفسر لنا ما اقتضاه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزُنكَ ﴾ من تفصيل معين تقصد السورة إليه ، كما تشى بذلك تراكيبها ، وكأن عرض القصص كله متعلق بالنبي ﷺ الذي تنزل عليه الوحي ، وبيان لصدق الوحي بعرض قصص السابقين .

ويترجح ما استبصرناه من أن قوله : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ (يونس:١١) هو قطب شبهاتهم في هذه السورة ، بما جاء عقب القصص من قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ (يونس:٩٦) ، وما بعدها ، وهو من نور قوله : ﴿ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ (يونس:١٣) وما تفردت به السورة

بعد من ذكر قوم يونس ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ ﴾ (يونس:٩٨) ووجه اختصاصها كما ذكر الأستاذ سيد قطب هو أنها «هي المثل الوحيد البارز للقوم الذين يتداركون أنفسهم قبل مباغتة العذاب لهم ، فيتوبون إلى ربهم وفي الوقت سعة ، وهم وحدهم في تاريخ الدعوات الذين آمنوا جملة بعد تكذيب فكشف عنهم العذاب الذي أوعدهم به رسولهم قبل وقوعه بهم»[1] . وهذا يدل كما ذكر البقاعي على اتحاد جهة الوحي وجهة العذاب فالإيمان بالأول يرفع الثاني وقد جاءت هذه القصة مقابلة لقصص النبيين السابقين ، ومفسرة لتأجيل العذاب ومنبهة بتفسير الغرض من التأخير إلى المطلع الذي يقصد منه النذارة والبشارة .

وختمت السورة بما يدل على أن قصتها كانت في إثبات صدق الوحي والموحى إليه ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ (يونس:١٠٨) وقوله : ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ (يونس:١٠٩) تلك بصيرة البقاعي ـ رحمه الله ـ في قوله : «وقد ختم ـ سبحانه السورة بما ابتدأها به من أمر الكتاب ، والإشارة إلى الإرشاد، لما ينفع من ثمرة إنزاله، وهو العمل بما دل عليه ... وهذا بعينه أول التي بعدها ، فكان ختم هذه السورة وسط بين أولها ، وأول التي تليها ، ففيه رد المقطع على المقطع وتتبع لما استتبع»[2] .

ولعل ما ذكرناه كان بصيرة من نور كلام الأئمة المخلصين وترجمة لقول ابن عاشور وغيره في آيتي الختام عند بيان موقعها مما مضى حيث قال هي «استئناف ابتدائي وهو كذيل لما مضى في السورة كلها ،

(١) في ظلال القرآن ١٧٥٢/٣، ١٧٥٣ .
(٢) نظم الدرر ٢٢٢/٩، ٢٢٣ .

وحوصلة لما جرى من الاستدلال والمجادلة والتخويف والترغيب ، ولذلك جاء ما في هذه الجملة كلاما جامعا وموادعة قاطعة»[1] .

والسورة تتشابه في كثير من تراكيبها مع كثير من السور ، مما يجعل استبصار نمطها البياني أمرا عظيما ، لأن ذلك يقتضينا رؤية تراكيب السورة مناظرة برؤية كل تراكيب الذكر الحكيم التي تقاربت مع التراكيب التي وردت فيها . والحمد لله على ما ساق وأعطى .

* * *

(١) التحرير والتنوير ٣٠٨/١١ .

الفصل الخامس

سورة هود

هذه السورة الكريمة تلي سورة يونس نزولا وتلاوة ، وقد اشتبهتا في كثير من نظمهما . لدرجة جعلت الإمام محمد عبده يزعم أنهما اتفقتا في الموضوع فيما يقول : «فقد أجمل في كل منهما ما فصل في الأخرى مع فوائد انفردت بها كل منهما ، فهما باتفاق الموضوع ، واختلاف النظم والأسلوب آيتان من آيات الإعجاز»(١) .

بل إن تراكيب مطلع هذه السورة جعلت ابن الزبير ـ في استكشافه مناسبتها لما قبلها ـ يجمل معاني السور الطوال وسورة يونس ثم يقول : «فلما تقدم هذا كله في السبع الطوال ، وما تلاها أعقب ذلك بقوله : ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ . . . ﴾ ثم أتبع هذا بالإيماء إلى فصول ثلاثة ، أما الأول : فأشار إليه قوله ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ وأما فصل الرسالة فأشار إليه قوله : ـ سبحانه ـ ﴿ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴾ وأما فصل التكاليف فأشار إليه قوله : ـ سبحانه ﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ . . . ﴾ وهذه الفصول الثلاثة هي التي تدور

(١) تفسير المنار ٣/١٢ .

عليها آي القرآن ، وعليها مدار سوره الكريمة»[1] وكلمته ـ رحمه الله ـ تكشف عن اكتناز معنى هذه الآيات ، بحيث كانت إجمالا لمقاصد الذكر الحكيم .

والسيوطي في محاولته استخراج مناسبة بين السورتين ـ يذكر أن سورة يونس أجملت قصة نوح ، وفصلتها هود تفصيلا لم تفصله سورة نوح[2] ـ وهو ـ فيما يبدو ناظر إلى قوله تعالى : في المطلع ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتۡ ﴾ وقد عللوا لتسميتها بهود بذكر اسم (هود عليه السلام) فيها خمس مرات[3] ، ولئن كان تفصيل قصة من القصص وكثرة ذكر اسم نبي من الأنبياء ، أو موضوع من الموضوعات ، أو أي مما ذكرنا يصلح تعليلا للتسمية فلقد كان الأولى بهذه السورة أن تسمى بسورة (نوح) فلقد بسطت فيها قصته عليه السلام وورد ذكره فيها سبع مرات[4] ، لكن علة التسمية ترجع إلى أن لقصة هود عليه السلام مزيد اختصاص بالمقصود ، لا يوجد في قصة نوح ولا غيره من النبيين ـ صلى الله عليهم أجمعين ـ ذلك ما أبصره البقاعي ـ رحمه الله ـ في تقرير مقصود هذه السورة حيث قال : «ومقصودها : وصف الكتاب بالإحكام والتفصيل في حالتى البشارة والنذارة المقتضي لوضع كل شيء في أتم مجاله ، وإنفاذه مهما أريد . الموجب للقدرة على كل شيء ، وأنسب ما فيها لهذا المقصد ، ما ذكر في سياق قصة هود عليه السلام من أحكام البشارة والنذارة بالعاجل والآجل في قوله تعالى : ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ ، والتصريح

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ، ص١١٠ .
(٢) يراجع تناسق الدرر ، ص ١٠٨ .
(٣) الآيات من سورة هود ٥٠، ٥٣، ٥٨، ٦٠، ٨٩ .
(٤) الآيات من سورة هود ٣٢، ٣٦، ٤٢، ٤٥، ٤٦، ٨٩ .

بالجزم بالمعالجة والمنابذة الناظر إلى أعظم مدارات السورة ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾ والعناية بكل دابة ، والقدرة على كل شيء من البعث وغيره ، المقتضي للعلم بكل معلوم اللازم منه التفرد بالملك »[1] .

وكان هداه في تقرير هذا المقصود تراكيب قصة هود ، وتراكيب مطلع السورة التي تجمل مقصودها في قوله تعالى : ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ (هود:١-٤) .

والمطلع يتقارب مع مطلع سورة يونس ، وأمر السورة في تفصيل البشارة والنذارة ، وذلك أمر في مطلع السورة الماضية أيضا ، والفصل بين سياقة البشارة والنذارة هاهنا ، وفي يونس أمر ملبس جدا فتفصيل البشارة والنذارة لم يقع في سورة يونس بقصص النبيين ، وإنما جاء قصص النبيين في سياق البشارة والنذارة هناك عنصرا مضافا إلى ما سبق من أحوال الإنسان وتصرفاته ، وأحوال الدنيا ، ولذلك جاءت القصص قصيرة ولثلاثة من النبيين متلائمة مع المقصود الذي أجمله المطلع هناك لكن القصص هاهنا هو قطب السورة الوافى بمقصودها المجمل في مطلعها كما سيظهر كما قال الأستاذ قطب : « وقصص هذه السورة هو قوامها ، ولكنه لم يجئ فيها مستقلا ، وإنما جاء مصداقا للحقائق الكبرى التي جاءت السورة لتقريرها والتي أجملها السياق في مطلع السورة : كِتَابُ أُحْكِمَتْ . . . إلى قوله : وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٍ »[2] .

---

(١) مصاعد النظر ١٧٥/٢ .

(٢) في ظلال القرآن ١٨٧٠/٤ .

وقد جاء في نظم السورة معالم دالة على ما ذكره ـ رحمه الله ـ لنتبين نور مطلع السورة الكريمة باصطحابه في استكشاف خصائص تركيبية للسورة ، ومحاولة وضع اليد على تفسير لها .

وقد ذكروا في (كتاب) إعرابين إما أن يكون مبتدأ ومسوغ الابتداء بالنكرة وصفه بقوله : ﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ﴾ ويكون قوله : ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ معطوفا عليه ، وقوله : ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ خبر المبتدأ وإما أن يكون ﴿ كِتَـٰبٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، ويكون قوله ﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ﴾ صفة للخبر ، وقوله : ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ صفة ثانية ، أو خبر بعد خبر أو صلة لأحكمت ، ويكون في هذا الوجه (طباق حسن ، لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها . . . خبير عالم بكيفيات الأمور)[1] وعلى الوجهين الإحكام والتفصيل متعلقان بالكتاب ، والجملة بهذا التركيب تستدعي سؤالا مؤداه ـ فيما أرى ـ فيم الإحكام والتفصيل أو لم الإحكام والتفصيل؟

فجاء قوله ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ بعلاقة نحوية ظاهرة ، وكاشفة عن الرابط الشديد في مؤدى الجمل المتواصلة في المطلع ، و(أن) إما أن تكون مفسرة ، لأن في تفصيل الآيات معنى القول ، ووقع هذا التفسير «لما في معنى أحكمت آياته . . . . من الدلالة على أقوال محكمة ومفصلة»[2] ، وإما أن تكون تعليلية ، ويكون المعنى : «لأجل أن تتركوا عبادة غير الله وتعبدوا الله ، فأخذ الترك من لا النافية والإثبات من الاستثناء»[3] وهذا اكتناز للمعنى يظهر بموازنته بقولنا : أن تعبدوا الله ، فتضيع نكتة الإيجاز ،

---

(١) الكشاف ٢٥٨/٢ ويراجع في هذه الإعرابيات البحر المحيط ٢٠٠/٥ .

(٢) التحرير والتنوير ٣١٥/١١ .

(٣) الفتوحات الإلهية ٣٧٩/٢ .

وفائدة القصر ، وعلى التركيب المعجز يتأتى الإنذار والبشارة فهو « مشتمل على المنع عن عبادة غير الله ، وعلى الترغيب في عبادة الله تعالى فهو ﷺ نذير على الأول بإلحاق العذاب الشديد لمن لم يأت بها ، وبشير على الثاني بإلحاق الثواب العظيم لمن أتى بها »[1] ، ووقع هذا الاعتراض بعده ليكشف جلال هذا المعنى الذي اكتنزه التركيب الأول ﴿ **إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ** ﴾ ووقع هذا الموقع « لأن شأن الاعتراض أن يكون مناسبا لما وقع بعده وناشئا منه »[2] .

وجاء قوله : ﴿ **وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ . . .** ﴾ وهو معطوف على قوله : ﴿ **أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ** ﴾ مكمل لتفصيل ما أجملته الآية الأولى ، وهذا يناسب في المطلع من حيث الإجمال والتفصيل ، وبيان لتعلق الإحكام والتفصيل بالبشارة والنذارة وتتبين هذا التشاكل في استخدام (ثم) التي تعبر عن التراخي في الحال لا في الزمان ، وقد وقع التفصيل في شأن الاستغفار بما لا نظير له في غير هذه السورة على سبيل الجواب له ﴿ **يُمَتِّعْكُم . . .** ﴾ وجاء الجواب مكتنزا للبشارة في الدارين بقيد ﴿ **إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ ثم قوله : ﴿ **وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ** ﴾ ولكل من هذه التراكيب صدى داخل السورة ومع أن مفهوم هذه الجملة يقتضى الإنذار ، إلا أنه فصل الإنذار بجواب وشرط ﴿ **وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ** ﴾ وفي هذه التراكيب إلماع إلى أن البشارة والنذارة في هذه السورة تجرى على الشرط والجزاء أنسب التراكيب لهذا الغرض ، عندما يكون مقصودا أعظم للسورة ، وهو ما تتظاهر عليه تراكيب قصص النبيين داخل السورة وقد وصف يوم العذاب بقوله :

---

(١) مفاتيح الغيب ٤٦٩/٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٣١٦/١١ .

﴿ كَبِيرٍ﴾ ولا نظير له في الذكر الحكيم ، وتجد صدى هذا الوصف الخاص بآيات هذه السورة في قصص النبيين .

ووقع قوله : ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ . . . ﴾ (هود:٤) موقع شبه كمال الاتصال ليكشف عن داعي خوف النذير ، وهو متواصل مع ما قبله إذ هذا اليوم موطن تحقيق النذارة والبشارة .

ثم جاء قوله : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ ﴾ (هود:٥) ليجمل من الإنذار والتهديد ما يتناسب واختصاص السورة بالبشارة والنذارة ، وقد تظاهرت التراكيب على بيان علمه سبحانه ـ بكل خَافٍ ، ﴿ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ وتتلاءم هذه التراكيب . وقوله : ﴿ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ ، وما جاء في الآية بعدها ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ . . .﴾ (هود:٦) بهذا الاستغراق الذي لا نظير له في الذكر الحكيم ، وهي ناظرة إلى البشارة في قوله : ﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ . . . ﴾ وإلى النذارة في قوله ﴿ وَإِن تَوَلَّوۡاْ . . . ﴾ وإلى تفصيل قوله : ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ ﴾ وتستظهر مناسبتها لما قبلها بتنظيرها بما تقاربها[1] فلن تجد تفصيلا كهذا التفصيل ، وقوله : ﴿ وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَا ﴾ ناظر أيضا إلى قوله : ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ ﴾ وإلى قوله في الآية الأولى ﴿ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ وكذا قوله ﴿ كُلٌّ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴾ .

وجاء قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ . . . ﴾ (هود:٧) متفردا بخصائص لا توجد في نظائره[2] تتلاءم مع المطلع الذي يجمل المقصود ، فهو أكثر التراكيب تفصيلا في هذا المعنى ، ولا كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ ﴾ في الذكر الحكيم ذلك ما أبصره البقاعي في قوله : « وهذا زيادة تفصيل لما ذكر في سورة يونس عليه السلام من أمر العرش ، لأن هذه سورة

(١) الأنعام ٣٨، والعنكبوت ٦٠ .

(٢) الأنعام ١، ٧٣، والأعراف ٥٤، ويونس ٣، ٦ .

التفصيل»[1] وفيه من التهديد الملائم لقصد النذارة والبشارة متعلق التفصيل في السورة بتنظيره بما سبق من تراكيب تدل على قدرته ـ سبحانه ـ لاسيما بعد أن وقعت في سياق قوله : ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ ﴾ ، ويترجح هذا الاستنباط باختصاص هذا التركيب دون نظائره بقوله : ﴿ لِيَبۡلُوَكُمۡ ﴾ الذي وقع علة لخلق السموات والأرض وأنهما ما خلقتا بمن فيهما إلا لأن يكونا محلا للنذارة والبشارة والناس بصددهما فريقان تفصل السورة شأنهما وجزاءهما ، وتبين شأن السابقين نحوهما والسورة من مطلعها تجمل البشارة والنذارة وتفصلهما ، ولا يغادر تركيبا داخل السورة نور المطلع ، ولا يغيب صدى المطلع عن المُتَسَمِّع لأى من تراكيب السورة . فقوله : ﴿ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓ ﴾ (هود:٨) متقارب مع قوله تعالى في يونس : ﴿ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ... ﴾ (يونس:١١) لكنه قال هنا : ﴿ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ ﴾ تناسبا مع قوله في المطلع ﴿ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ﴾ وأجمل هنا ما فصله في يونس من سوق البشارة والنذارة من تصرفات الإنسان تناسبا مع المطلع هناك فقال هنا : ﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ ﴾ (هود:٩) ﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ ﴾ (هود:١٠) ، وهما وجهان للبلاء متصلان بما خلق السموات والأرض لأجله لذا لم يكن لهاتين الآيتين أن تقعا في يونس مع تصدير كل من السورتين بآية خلق السموات والأرض . . . لأن هذا السورة تمحضت لتفصيل البشارة والنذارة ، وقد وقع هذا التقارب في التراكيب وفي أنماط جريان المعنى لتقارب المطالع ، ولما بين القرآن ، حال النوع الأول بين ـ إجمالا ـ حال النوع الثانى بقوله ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ . . . ﴾ (هود:١١) وقد جعل الصلة ﴿ صَبَرُواْ ﴾

(١) نظم الدرر ٢٣٩/٩ .

دون (آمنوا) تناسبا مع ما مضى من الآيتين ، ولأن المراد مقابلة حالهم بحال الكفار «ودل الاستثناء على أنهم متصفون بصفات ضد المستثنى»[1].

وقد جاء قوله تعالى : ﴿ **أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ** . . . ﴾ (هود:١٧) ليكون مفتاحا لفقه نظم قصص السورة وهو متلائم مع المطلع بشأن المنذر المبشر أن يكون على بينة ، وقد ذكر العلامة ابن عاشور أن «الفاء للتفريع على جملة أم يقولون افتراه إلى قوله : ﴿ **فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ ، وأن أبينهما اعتراض لتقرير توغلهم في المكابرة ... وهذا التفريع تفريع الضد على ضده في إثبات ضد حكمه له ، أى : إن كان حال أولئك المكذبين كما وصف ، فثم قوم هم بعكس حالهم قد نفعتهم البينات والشواهد فهم يؤمنون بالقرآن ، وهم المسلمون ، وذلك مقتضى قوله : ﴿ **فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ أى كما أسلم من كانوا على بينة من ربهم منكم ومن أهل الكتاب»[2] والآية فيها إجمال وتفصيل ، فقد ذكر النوع الأول ﴿ **أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ** ﴾ وحذف الطرف الثاني (كمن ليس كذلك) ودل عليه بقوله : ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ** ﴾ فهو لف ونشر مرتب كما يقولون[3] مع ملحظ مهم هو أن هذا الإجمال والتفصيل وقع في شأن تنويع الناس من حيث البشارة والنذارة مقصد هذه السورة ، مع ملحظ مهم أيضا هو اختصاص الآية في هذه السورة بقوله : ﴿ **وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ** ﴾ وما يقتضيه قوله : ﴿ **عَلَىٰ بَيِّنَةٍ** ﴾ من التبصر ، وما يقتضيه التركيب الثاني من التسمع ، كل ذلك في إطار البشارة والنذارة ، وذلك التركيب المبني

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/١٥ .

(٢) التحرير والتنوير ١٢/٢٦ .

(٣) راجع الفتوحات الإلهية ٢/٣٨٨، والصاوي على الجلالين ٢/٢١١ .

على اللف والنشر المرتب[1] صوره قوله : ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ﴾ (هود:٢٤) . على اللف والنشر المرتب أيضا ولا كهذا التركيب في الذكر الحكيم وبهذا الترتيب البديع (البصير) يصور ﴿ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ ﴾ والسميع يصور (ويتلوه شاهد منه)، والعكس يصور العكس ، وقد مهد لهذا التشبيه بقوله : ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ (هود:٢٠) ليبين عن طرف السورة الآخر (الأعمى والأصم) .

وكان لابن عاشور أن يقول بشأن هذا التشبيه «الجملة فذلكة للكلام وتحصيل له وللتحذير من مواقعة سببه»[2].

وهذا التشبيه ـ فيما أرى ـ بهذا التناغي هو مفتاح السورة ، فقد أجملت السورة ، وفصلت في البشارة والنذارة في المطلع ، وبينت إجمالا حال الناس تجاهها وجاء قوله : ﴿ ٱلْفَرِيقَيْنِ ﴾ ليكشف لنا أن الحديث الماضي كان إجمالا لحال الفريقين أي تجاه البشارة والنذارة ، وأن ما يأتي من قصص النبيين إنما هو في بيان الفريقين السابقين ، ولما كانت السورة متمحضة لتفصيل هذا الغرض اتبع الذكر الحكيم الترتيب التاريخي للنبيين فقد ذكر قصص (نوح ـ هود ـ صالح ـ إبراهيم ـ لوط ـ شعيب ـ موسى) ولم يتبع الذكر الحكيم هذا النمط التاريخي في الترتيب إلا في هود وسورة الأعراف لتمحضها للإنذار ، وتمحض الأولى للنذارة والبشارة ، والذي هدانا إلى استبصار موقع هذا التشبيه في السورة ، وكونه مفتاحا لفقه أسلوب

---

(١) ويعرفه البلاغيون بأنه (ذكر متعدد على التفصيل أو الإجمال ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده إليه ، وإن جاء النشر على ترتيب اللف سمي باللف والنشر المرتب) . شروح التلخيص ٣٢٩/٤ وما بعدها .

(٢) التحرير والتنوير ٤٠/١٢ .

قصص السورة قول البقاعي في بيان مناسبته لما قبله «ولما استوفى أوصاف الحزبيين وجزاءهم ضرب للكل مثلا بقوله : (مَثَلُ الفريقين)»[1].

وقد جاءت في قصص النبيين معالم دالة على ارتباطها بهذا التشبيه بتناغيه مع هذا السياق ، بتواصله مع المطلع فلا تجد كقوله تعالى ﴿ **أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ** ﴾ (هود:٢٦) في قصة نوح في الذكر الحكيم ، وهو التركيب المذكور في مطلع السورة ، ومن هذه المعالم اختصاص قصص النبيين في هذه السورة بقول نوح عليه السلام : ﴿ **أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى** ﴾ (هود:٢٨) وقول صالح عليه السلام ﴿ **أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى** ﴾ (هود:٦٣) وقول شعيب عليه السلام ﴿ **أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى** ﴾ (هود:٨٨) ، فهو تواصل لا ينقضي منه العجب ، ولا كقوله تعالى في قصة نوح في الذكر الحكيم ﴿ **فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ** ﴾ (هود:٢٨) وهي استعارة بديعة « إذ شبهت الحجة التي لم يدركها المخاطبون كالعمياء في أنها لم تصل إلى عقولهم ، كما أن الأعمى لا يهتدي للوصول إلى مقصده»[2] يفسر وجه اختصاص السورة به بنور التشبيه الذي وقعنا على تفهمه بتناغيه وتواصله ، وبتدبر تواصل قول نوح عليه السلام ﴿ **وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ** ﴾ (هود:٣١) مع قوله ـ سبحانه ﴿ **فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ** ﴾ (هود:١٢) ، وتواصل قوله : ﴿ **لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ** ﴾ (هود:٤٣) مع قوله : ﴿ **أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ** ﴾ (هود:٨).

ومعلم آخر يدل على هذا الترابط العجيب وقع لابن عاشور ولم يقع لغيره فقد عد قوله تعالى : ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ** ﴾ (هود:٣٥) اعتراضا في قوله : هي «جملة معترضة بين جملة أجزاء القصة

---

(١) نظم الدرر ٢٦٣/٩ .

(٢) التحرير والتنوير ٥٢/١٢ .

وليست من القصة ، ومن جعلها منها فقد أبعد وهى تأكيد لنظيرها السابق في أول السورة ـ ومناسبة هذا الاعتراض أن تفاصيل القصة التي لا يعلمها المخاطبون تفاصيل عجيبة تدعو المنكرين إلى أن يتذكروا إنكارهم ويعيدوا ذكره»[1] وهو إلماع إلى غرض سياقة القصة .

ولعل في تسمية السورة بهود معلما دالا على هذا الترابط العجيب بينها وبين المطلع الذي يجمل مقصود السورة فقد تكررت فيها ـ دون غيرها من قصص النبيين تراكيب تتقارب أن لم تعد بنمطها المذكور في المطلع من مثل قوله : ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ (هود:٥٢) و﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ (هود:٥٦) ولا كقوله تعالى في قصة صالح عليه السلام : في الذكر الحكيم ﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ (هود:٦١) ولا في قصة لوط ﴿ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ (هود:٧٦) وهو متلائم مع قوله : ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾ (هود:٨) ولم يأت في الذكر الحكيم تفصيل في الإنذار بالسابقين كقوله تعالى : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ (هود:٨٩) وهو فيما أرى يرجح ما استنبطناه من أن الترتيب التاريخى للقصص لا يأتى إلا إذا تمحضت السورة للبشارة والنذارة .

وفى تكرار قوله تعالى ـ معقبا قصة كل نبي من الأنبياء ـ بقوله : ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (هود:٤٤) وقوله : ﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ (هود:٦٨) وقوله : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ (هود:٩٥) نور من وقوعه في

(١) التحرير والتنوير ٦٣/١٢ .

سياق النذارة والبشارة اللتين تمحضت السورة لتفصيلهما ، لذلك لم يقع هذا التركيب في غير هذه السورة إلا في سورة (المؤمنون)[1] مع مراعاة الفرق الهائل بين التركيبين الواردين هناك وبين هذه التراكيب .

وكان وصف يوم العذاب بهذا الوصف (كبير) الذي لا نظير له إشارة إلى إنذار الأنبياء السابقين بهذا اليوم بأوصاف لا نظير لها في غير السورة أيضا ﴿ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (هود:٧٧) . . . ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ (هود:٨٤) .

وكثير من تراكيب السورة يظهر الترابط بينها وبين المطلع الذي يجمل المقصود إلا أننا نضع اليد على ما حاولنا تلمسه من بيان سلك السورة البلاغي ، ثم جاء عقب القصص قوله : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ ﴾ (هود:١٠٠) إلى آخر السورة ، وهو ختام للسورة «يشتمل على تعليقات ، وتعقيبات متنوعة مبنية على ما سبق في سياق السورة من المقدمة ومن القصص»[2] ، وفيه معالم دالة على تواصله مع المطلع وفي ذلك من تحديد غرض سياقة القصص ما لا راد له ، فقوله ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ (هود:١٠٤) ناظر إلى قوله : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ (هود:٨) وهو ناظر إلى المطلع ، وجاء قوله : ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (هود:١٠٨) مقابلا لقوله في المطلع : ﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ تنبيها لاستبصار السلك الذي انتظم بيان السورة إلى هذا الموضع .

وجاء قوله : ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ (هود:١١١) ، وهو (تذييل للأخبار السابقة)[3] .

---

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٤١، ٤٤ .

(٢) في ظلال القرآن ١٩٢٦/٤ .

(٣) التحرير والتنوير ١٧٣/١٢ .

وجاء قوله : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ ﴾ (هود:١١٢) ناظرا إلى قوله في المطلع ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ . . . ﴾ وعبر بالماضي في قوله : ﴿ وَمَن تَابَ ﴾ وبالأمر في قوله : ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓاْ ﴾ في المطلع ، لبيان ما ينبغي أن يصنعه الاعتبار بالسابقين في الإنذار وقوله : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ (هود:١٢٠) «تذييل وحوصلة لما تقدم . . . وهذا تهيئة لاختتام السورة وفذلكة لما سبق فيها من القصص والمواعظ»[١] . وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ﴾ (هود:١٢٣) «كلام جامع وهو تذييل للسورة مؤذن بختامها ، فهو من براعة المقطع»[٢] وقوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ ﴾ «فذلكة جامعة فهو تذييل لما تقدم»[٣]، وما أجمل ما أبان به البقاعى في ختم السورة بقوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ . . . ﴾ فقال : «ولما كانت العادة جارية بأن العالم قد يغفل نزه عن ذلك ـ سبحانه ـ نفسه ، فقال : ـ مرغبا مرهبا ـ ﴿ وَمَا رَبُّكَ . . . ﴾ ولا تهديد أبلغ من العلم ، وهذا بعينه مضمون قوله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ . . . ﴾»[٤].

فهذه إشارات من نور ما اهتدينا به من بصائر السلف في محاولة التعرف على السلك البياني لهذه السورة ، والمعاني والتراكيب فيها متواصلة متناغية في سلك عجيب ، هذا القلم دون الكشف عن شيء منه ، والحمد لله على ما ساق وأعطى .

* * *

(١) التحرير والتنوير ١٩١/١٢ .
(٢) المرجع نفسه ١٩٤/١٢ .
(٣) المرجع نفسه ١٩٦/١٢ .
(٤) نظم الدرر ٤٠٧/٩ .

الفصل السادس

سورة يوسف

هذه السورة الكريمة دون سائر السور تتميز بعدة خصائص :

أولها : استغراق قصة يوسف جل آيات السورة ، وكانت هذه الخصيصة تأييدا لمن قالوا بوحدة مقصودة السورة القرآنية ، والذين قالوا بتعدد أغراض السورة استثنوا هذه السورة مما قرروه .

ومن ميزات قصة هذه السورة أن الله وصفها بقوله : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ**﴾ ، وقد علل العلماء لتفردها بهذا الوصف بعدة علل أبانت عن العلاقة بين مطلعها ومقصودها :

١- أن مضمونها مفارق لمضمون قصص النبيين ، إذ حاصلها فرج بعد شدة وتعريف بحسن عاقبة الصبر ، وأنها أشبه شيء بحال المؤمنين في مكابدتهم أول الأمر إلى أن جمع الله شملهم[1] .

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ، ص ١١١ .

٢- أنها تتضمن من العبر والحكم ما لا تتضمنه قصة أخرى ، واستدلوا لذلك بقول الله في آخرها : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ (يوسف:١١١)[١] وهذه العلة ثمرة النظر في الآيات التي وقعت قصة يوسف بينها في المطلع والخاتمة حيث أبانت عندهم عن المقصود من القصة ، لأن قصص النبيين ليس مقصدا يطلب وإنما هو سبيل للمقصود .

٣- أنها اختصت بذلك لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته ، وصبره على أذاهم وعفوه عنهم[٢] . وهذه من علاقة المطلع بالمقصود من القصة أيضا .

٤- أنها اختصت بذلك ، لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة[٣].

٥- أنها انفردت عن سائرها بما فيها من ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس[٤] .

٦- أوبأن في هذه السورة أسلوبا خاصا من أساليب إعجاز القرآن وهو الإعجاز في أسلوب القصص[٥] .

وكل ما قالوه في هذه التعليلات كان ثمرة النظر إلى ما تفردت به القصة من الوصف في مطلع السورة ، مقارنا بالتأمل في عبر القصة وطريقة عرضها وخصائصها البيانية ، وما عقب به على القصة من آيات هي من فيض دلالة المطلع .

(١،٢،٣) الجامع لأحكام القرآن ٥/٣٤٤١ .

(٤) البحر المحيط ٥/٢٧٨ .

(٥) التحرير والتنور ١٢/١٩٧ .

ومن ميزات هذه القصة أنها لم تتكرر ، وقد عللوا لذلك بالتحدي بما لم يتكرر كما تحدوا بما تكرر من قصص النبيين ، لبيان أنه لم يقدر مخالف على معارضته ما تكرر ، ولا على معارضة غير المتكرر[1] .

كما عللوا لتأخرها إلى هذا الموضع من الذكر الحكيم بتفردها بنوع العبرة التي تحكيها القصة إذ هي « إخبار بعاقبة من آمن واتعظ ووقف عند ما حدد له ، فلم يضره ما كان »[2] .

وكان مطلع السورة وخاتمتها ، وما وقع بينهما من عرض القصة وما تذاكره العلماء فيما مضى هاديا إلى تحديد مقصود السورة عند البقاعي ، فقال : رحمه الله ـ « ومقصودها : وصف الكتاب بالإبانة لكل ما يوجب الهدى لما ثبت فيما مضى ، ويأتي في هذه السورة من تمام علم منزله غيبا وشهادة ، وشمول قدرته قولا وفعلا ، وهذه القصة كما ترى أنسب الأشياء لهذا المقصود ، وأدل عليه مما في آخرها فلذلك سميت سورة يوسف »[3] .

ومطلع السورة يجمل هذا المقصود الذي قرره البقاعي ، ويكشف عما يحتاج إليه هذا المقصود من مقدمات لتقريره . وذلك المطلع هو قوله تعالى : ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ إِنَّآ ۝١ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ (يوسف:١، ٢، ٣) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٤٣٩/٤ .

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن ص ١٢٢ .

(٣) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ١٨٥/٢ .

ويترجح ما قرره من المقصود بما قرره جار الله من أن المراد بالكتاب المبين السورة ، وتابعه الفخر الرازي وأبو حيان في الرأي المرجوح وأبو السعود ، وتابعه البيضاوي في هذا وفي أن المراد بالقرآن في قوله : ﴿ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ السورة[1] .

كما يترجح بأن قوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا ﴾ (يوسف:٢) «استئناف يفيد تعليل الإبانة من جهتي لفظه ومعناه ، فإن كونه قرآنا يدل على إبانة المعاني ، لأنه ما جعل مقروءا إلا لما في تراكيبه من المعاني المفيدة للقارئ ، وكونه عربيا يفيد إبانة ألفاظه عن المعاني المقصودة للذين خوطبوا به ابتداء»[2] وجار الله يجعل الضمير في (أنزلناه) عائدا إلى الكتاب الذي هو بمعنى السورة يقول : «أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف»[3] .

وقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ (يوسف:٣) منزل من جملة ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ «منزلة بدل الاشتمال . . . وكون القصص من عند الله يتنزل منزلة بدل الاشتمال من جملة تأكيد إنزاله من عند الله ، وقوله : ﴿ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ يتضمن رابطا بين جملة البدل والجملة المبدل منها»[4] ، ومع كونه رابطا بين الجملتين هو ربط للآية بالمطلع أيضا ، الذي هو جذر المقصود أشار الزمخشري إلى هذا الرابط فقال : «أي بإيحائنا إليك هذه السورة»[5]

---

(١) يراجع الكشاف ٣٠٠/٢، ومفاتيح الغيب ٦٤٥/٨، والبحر المحيط ٢٧٧/٥، وإرشاد العقل السليم ١٥٠/٥، وأنوار التنزيل ٤٨٦/١ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٠١/١٢ .

(٣) الكشاف ٣٠٠/٢ .

(٤) التحرير والتنوير ٢٠٢/١٢ .

(٥) الكشاف ٣٠٠/٢ .

والباء على هذا التأويل سببية ، والقرآن بمعنى السورة ، وفي هذا التركيب بالإضافة إلى تفرد القصة بهذا الوصف ﴿ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ إشارة إلى أن هذه القصة ستكون مشتملة على كل ما يوجب الهدى ، ويكون المقصود وصف الكتاب ـ السورة ـ بالإبانة عن كل ما يوجب الهدى ، ولو قلنا إن مقصودها وصف الكتاب بالإبانة فقط لالتبس ذلك بمطالع سور أخرى[1] .

وكان قوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَهُ ﴾ داعية الاختلاف في تقرير مقصود السورة عند الشيخ عبد المتعال الصعيدي ، فهو يقرر أن مقصودها : « إثبات تنزيل القرآن كما يقصد من سورتي يونس وهود ، ولهذا ذكرت بعدهما ، وتختلف طريقة إثباته فيهما ، لأن طريقة إثباته فيهما كانت بتحديهم أن يأتوا بسورة أو عشر سور مثله ، أما طريقة إثباته في هذه السورة ، فبأنه يقص عليهم من تفصيل أخبار يوسف ما لا يُمَكِّنُ أميا مثله أن يعرفه ، وقد جاءت هذه السورة في هذا الغرض على ثلاثة أقسام : أولها : مقدمة يقصد منها التمهيد لقصة يوسف ، وثانيها : في قصة يوسف ، وثالثها : في خاتمة تناسب ما سيقت له هذه القصة »[2] .

وربما يتأيد ما رآه بما عزاه السيوطي إلى ابن عباس وجابر بن زيد من أن يونس نزلت ثم هود ثم يوسف[3] ، وبما عزاه الواحدي إلى سعد ابن أبى وقاص في قوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ﴾ : قال :« أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زمانا ، فقالوا : يا رسول الله لو قصصت فأنزل الله تعالى :

---

(١) يستظهر في المصحف الشريف مطالع سور ـ الحجر ، الشعراء ، النمل ، القصص .

(٢) النظم الفني في القرآن ص١٤٩ .

(٣) تناسق الدر في تناسب السور ص١٠٩ .

﴿ الٓر ﴾ إلى قوله : ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ ﴾ فتلاه عليهم زمانا ، فقالوا : يا رسول الله لو حدثتنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ . . . ﴾ قال : كل ذلك ليؤمنوا بالقرآن »[1].

مما يجعل القصص عند العرب طريقا لإثبات الوحي ، وما قرره البقاعي أولى لما ذكرناه من علاقة تراكيب المطلع ، وما علل به العلماء لتفرد القصة بهذا الوصف ﴿ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ ﴾ ، ولئن كانت السورة مبينة عن كل ما يوجب الهدى فذلك طريقٌ لإثبات الوحي أيضا ، إلا أن هذا الغرض الذي قرره الشيخ عبد المتعال ، جاء فرعا عن مقصود السورة الذي قرره البقاعي ، فالمطلع يجمل المقصود على الرأيين .

وعندي وجه آخر لاختصاص السورة بهذا الوصف ﴿ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ ﴾ هو أن يوسف عليه السلام وصف بالإحسان ممن يحبه ، وممن يكرهه ، ومن نفسه وهذا أمر اختصت به القصة دون سائر قصص الذكر الحكيم .

فقد جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف:٢٢) وفي كلام صاحبي السجن ﴿ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف:٣٦) وبعد جعله على خزائن مصر ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف:٥٦) ومن إخوته ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف:٧٨) وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف:٩٠) فكأن قصته وصفته بالحسن في المطلع لما اشتهر صاحبها بالإحسان ، ووقع هذا الوصف له خمس مرات

(١) أسباب النزول ، ص٢٠٣، وقال رواه الحاكم في صحيحه .

في السورة تستظهر هذه اللطيفة بتنظيرها بما جاء في سورة الصافات من وقوع هذا التذييل ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ خمس مرات عقب قصص النبيين ، مرة عقب قصة نوح ، ومرتين عقب قصة إبراهيم ، ومرة عقب قصة موسى وهارون ، ومرة عقب قصة إل ياسين[1] .

وما ذكرناه مستنبط من تفرد هاتين السورتين بوقوع هذا الوصف خمس مرات في كل منهما ، كأن هذه القصة تحوى من الإحساس ما يحويه قصص النبيين ومن الحكم ومن العبر وغير ذلك مما علل به العلماء لتفرد القصة بهذا الوصف .

وقد أبان عن ذلك أيضا موقع قوله : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ (يوسف:٤) فهو ـ كما قال جار الله ـ « بدل من أحسن القصص ، وهو من بدل الاشتمال »[2] وهذه الآية باتصالها بالمقصود الذي أجمله المطلع وآيتان بعدها تعد إجمالا لقصة يوسف أيضا من أول قوله:﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الآيات (٤، ٥، ٦) ولتراكيب هذه الآيات صدى في تراكيب آيات القصة ، وهي متواصلة مع المطلع تواصلا ظاهرا ، فقد أبانت السورة التي بمعنى الكتاب عن هذه القصة خير بيان يوجب الهدى ، واشتملت على تمام معرفته غيبا وشهادة ، وشمول قدرته قولا وفعلا بطريق القصة .

ومما يذكر في هذا الصدد أن أحد الباحثين[3] مع اشتغاله بالكشف عن

---

(١) سورة الصافات الآيات ٨٠، ١٠٥، ١١٠، ١٢١، ١٣١ .

(٢) الكشاف ٣٠١/٢ .

(٣) يراجع (الخصائص البلاغية في سورة يوسف) ماجستير مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة تحت رقم ١٦٢٨ للباحث : محمود حسن مخلوف ص٢٣٨، وما بعدها .

الخصائص البلاغية لهذه السورة ـ وإفراده مبحثا جعله لبيان معاقد الكلام وبنية الجملة في السورة ـ مع كل ذلك قسم السورة إلى ثماني فقرات كانت أول فقرة عنده من قوله ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، وهي بمثابة تمهيد للرؤيا ولم يبين لنا موقع الفقرة الأولى من الآيتين الأُولَيَيْن اللتين تعدان إجمالا للمقصود على ما قرره البقاعي والشيخ الصعيدي ، والأمر كما ترى من الترابط والتواصل بين المقصود وبين المطلع وبين القصة بهذا الترتيب التنازلي بإجمال المقصود في المطلع ، ثم شرحه بالقصة إجمالا ثم تفصيلا بقوله : ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ ... ﴾ ومما يدلك على أن الثلاث آيات التي وليت المطلع كانت إجمالا لقصة يوسف ، ما تجده من التراكيب المباشرة التي لها علاقة بهذا الإجمال ، وكأن الذكر الحكيم وضعها معالم دالة على هذا التواصل والترابط من مثل قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ (يوسف:٢١) وقوله على لسان صاحبي السجن ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ (يوسف:٣٦، ٣٧) ورؤيا الملك ، وتأويلها الذي كان سبب التمكين وتمام النعمة ، كما أجمل ذلك قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ (يوسف:٦) .

وجاء ختم القصة مبينا أن قصة السورة كانت رؤيا ، عرضت السورة لتفصيلها ثم تحققت في نهاية القصة ، وعاد الكلام إلى إجمال القصة في المطلع بقوله : ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ والآية إجمال عقب شرح القصة يتعانق وإجمال مطلع القصة بهذا الترتيب

والتناسق الذي يتلاءم مع الترتيب التنازلي في مطلع القصة فقوله : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ يعانق قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ يعانق قوله في الختام ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾ وقوله: ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ ﴾ يعانق قوله : ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ ﴾ في الختام .

ولما كانت قصة الرؤيا أمر هذه القصة قال عليه السلام في الختام ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ (يوسف:١٠١) وهو تحقيق لقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ (يوسف:٦) فهو رد للعجز على[1] الصدر في نطاق متسع يصور وحدة بناء السورة وعلاقة تراكيب القصة ، بإعادة تراكيب مباشرة وظاهرة في النهاية .

وكان للعلماء وقفات عند قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ (يوسف:١٠٢) كشفت عن بيان علاقة هذه الآيات بالمطلع ، ورجحت ما قرره البقاعي من مقصود السورة الذي أجمله المطلع ، فالختام إحدى عشرة آية بدأت من هذه الآية (١٠٢) إلى آخر السورة ، وهي جميعا تعقيب على القصة يتعانق مع التقديم لها في بيان المقصود من عرضها فيما يقول صاحب المنار : «وهي أطول قصة في القرآن افتتحت بثلاث آيات تمهيدية . . . وختمت بإحدى عشرة آية في الاستدلال على ما أنزله

(١) البلاغيون يعدون هذا اللون من المحسنات اللفظية ، ويذكرون أنه يقع في النظم والنثر ، وهو في النثر أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما في أول الفقرة والآخر في آخرها راجع شروح التلخيص ٤/٤٣٣، وما بعدها ، ولكن يبدو أن هذا اللون في القرآن على وجه آخر ، وقد يكون على ما قرروه على اعتبار أن القصة من أولها إلى آخرها فقرة واحدة ، فيكون معلما على وحدة بناء السورة .

الله لأجله من إثبات رسالة خاتم النبيين . . .»[1] بغض النظر عما قرره من مقصود يخالف ما قرره البقاعي .

وفيما يقول الأستاذ سيد قطب عند هذه الآية : «وقد سبق في مطلع السورة قول الله تعالى لنبيه : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ فها هو ذا يعقب على القصة بعد تمامها ويعطف ختامها على مطلعها»[2]، وهو الذي نبهنا ـ رحمه الله ـ إلى أن للقصة مطلعا وختاما وللسورة مطلعا وختاما بقوله عند آخر آية : «وهكذا يتوافق المطلع والختام في السورة ، كما توافق المطلع والختام في القصة ، وتجيء التعقيبات في أول القصة وآخرها وبين ثناياها ، متناسقة مع موضوع القصة وطريقة أدائها وعباراتها كذلك»[3] .

وما ذكره العلامة ابن عاشور من أن «ذكر هذه الرؤيا في صدر القصة كالمقدمة والتمهيد للقصة المقصودة»[4] ، وهذا التعقيب متناسب مع البدء منبه إلى أن ما جرى في السورة من الوحي بقوله هنا : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ ﴾ (يوسف:١٠٢) وقوله في المطلع : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ ﴾ (يوسف:٣) وما أجمل التعريض بالمشركين وبغبائهم في هذا الموقع ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ ﴾ (يوسف:١٠٢) ، وقد تولد عن هذا التعريض قوله : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ، (يوسف:١٠٣) .

---

(١) المنار ٢٠٧/١٢ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٠٣١/٤ .

(٣) في ظلال القرآن ٢٠٣٧/٤ .

(٤) التحرير والتنوير ٢٠٨/١٢ .

قال الفخر ـ رحمه الله ـ في هذه الآية «اعلم أن وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن كفار قريش وجماعة من اليهود ، طلبوا هـذه القصة من رسول الله ﷺ على سبيل التعنت ، واعتقد رسول الله ﷺ أنه إذا ذكرها فربما آمنوا فلما ذكرها أصروا على كفرهم فنزلت»[1] ، وذلك لأن هذه القصة تشتمل على كل ما يوجب الهدى ، وذلك ما لا يكون إلا بطريق الوحي . ثم استطردت الآيات في هذا المعنى ، ووضع القرآن معلما لهذا الاستطراد هو قوله : ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ** ﴾ (يوسف:١١٠) وذلك الاستيئاس لا يكون إلا بعد استفراغ المجهود في بيان سبل الهدى ، وهذا المعنى متواصل مع آية الختام التي تتواصل هي الأخرى مع آيات المطلع التي تجمل المقصود من القصة .

وجاء قوله : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (يوسف:١١١) وهو إجمال لمقصد السورة متلاق مع المطلع مصورا الترقي في بيان المقصود وما يحتاج إليه من المقدمات بادئا بالأدنى مترقيا إلى المقصود الأعلى بعكس آيات المطلع التي بدأت ببيان المقصود الأعلى في وصف الكتاب ـ الذي هو بمعنى السورة بالإبانة ، وما احتاج إليه ذلك المقصود من عرض قصة هي أحسن القصص في بيان ما يوجب الهدى . مع مراعاة أن هذا التركيب لا نظير له في الذكر الحكيم فقوله : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ** ﴾ متعانق مع قوله ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ** ﴾ كما مضى من تعليلات الأئمة لتفرد القصة بهذا الوصف ، وقوله : ﴿ **مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ** ﴾ متعانق

(١) مفاتيح الغيب ١٧٣/٩ .

مع قوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ . . . ﴾ وقوله : ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ متعانق مع وصف الكتاب ـ بمعنى السورة ـ بالإبانة لكل ما يوجب الهدى . في هذا التناسق ، المذهل لبيان القرآن الكريم . كما قال الفخر ـ رحمه الله ـ في بيان وجوه الاعتبار في الوجه الثالث :

« أنه ذكر في أول السورة ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ . . . ﴾ ثم ذكر في آخرها ﴿ لَقَدْ كَانَ . . . ﴾ تنبيها على أن حسن هذه القصة إنما كان بسبب أنه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة »[1].

وقد ذكروا أن الضمير في ﴿ قَصَصِهِمْ ﴾ « عائد على يوسف وإخوته بدليل قوله تعالى في أول هذه السورة : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ . . . ﴾ »[2] ويرجحه قوله سبحانه ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ (يوسف:٧) بقرينة أن التنكير في ﴿ ءَايَٰتٌ ﴾ للتعظيم .

وكانت هذه الآية ـ كما قال ابن عاشور ـ « من رد العجز على الصدر ، فهي مرتبطة بجملة ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ ، وهي تتنزل منها منزلة البيان لما تضمنه معنى الإشارة في قوله : ﴿ ذَٰلِكَ . . . ﴾ وهي أيضا تتنزل منزلة التذييل للجمل المستطرد بها لقصد الاعتبار بها ابتداء من قوله : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ . . . ﴾ وهذه الآية ناظرة إلى قوله تعالى في أول السورة ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ . . . ﴾ فكما سماه الله أحسن القصص في أول السورة نفى عنه الافتراء في هذه الآية »[3].

وتعانق البدء مع الختام بهذه الهيئة يرجح ما قرره البقاعي ـ رحمه الله ـ من مقصود السورة ـ والحمد لله أولا وآخرا .

* * *

---

(١) مفاتيح الغيب ١٧٢/٩ .

(٢) الصاوي على الجلالين ٢٦٢/٢ .

(٣) التحرير والتنوير ٧١/١٣، ٧٢ .

الفصل السابع

سورة الرعد

مما يلفت في هذه السورة افتتاحها بـ ﴿ الٓمٓر ﴾ ، فجمع افتتاحها بالحروف بين ذوات (الر) و(الم) ، وقد ذكر الكتاب عقب هذه الافتتاحات فيما عدا بعض السور وربما يكون افتتاح الرعد بهذه الهيئة إشارة إلى تقارب مقصودها ، مع مقصود نظائرها وتفردها بخصيصة دون أخواتها ، وفي ذكر الكتاب بعد هذه الأحرف عجيبة أخرى تضاف إلى هذه العجيبة ، فالكتاب يتبع بصفات دائما في نظائرها ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ ﴾ ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ أما هنا فقد قال : ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ ، كان هذا المطلع بهذه المفارقات بينه وبين نظائره ، مع ما سميت به السورة ، وما اختصت به السورة من بعض التراكيب ، كل ذلك كان هاديا البقاعي إلى استبصار مقصود السورة فقرره بكلام يغري أول الأمر بدفعه ، إلا أن تفهمه يهدينا إلى استكشاف خيط البيان الذي انتظم هذه السورة الكريمة .

يقول : رحمه الله ـ « ومقصودها : وصف الكتاب بأنه الحق في نفسه ، وتارة يتأثر عنه ـ مع أن له صوتا وصيتا وإرغابا وإرهابا يهدي بالفعل ـ

وتارة لا يتأثر ، بل يكون سببا للضلال والعمى ، وأنسب ما فيها لهذا المقصد الرعد ، فإنه ـ مع كونه حقا في نفسه ، يسمعه الأعمى والبصير والبارز والمستتر ـ تارة يتأثر البرق عنه والمطر ، وتارة لا ، وإذا نزل المطر فتارة ينفع إذا أصاب الأراضي الطيبة ، وسلمت من عاهة ، وتارة يخيب إذا نزل على السباخ الخوارة ، وتارة يضر بالإغراق أو الصواعق أو البرد وغيرها »[1] .

والمقصود ـ على قول البقاعي ـ يجمله قوله تعالى : ﴿ الٓمٓرٰۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ (الرعد: ١) .

والزمخشري يخص اسم الإشارة بآيات السورة ، لأنه يفسر الكتاب بالسورة ويتأول المعنى فيقول : « تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها »[2]، ويتأول غيره الكتاب بالقرآن ، والحق فيما تأوله الزمخشري ، لأن معطوف هذه الجملة قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ ﴾ ، ولو كان المراد من الكتاب القرآن لكان التركيب تلك آيات الكتاب الحق الذي أنزل إليك من ربك ، أو حذف حرف العطف من التركيب لكنه جاء بعاطف فاقتضى المغايرة ، وعطفت الجملة ﴿ وَٱلَّذِيٓ ... ﴾ على ﴿ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ من باب « عطف العام على الخاص »[3] . كأن المعنى على هذا الوجه . تلك آيات السورة الكاملة في الدلالة على أن الكتاب حق في نفسه .

ويغري على القول بهذا التأويل تعريف الخبر ﴿ ٱلۡحَقُّ ﴾ لما في التعريف من الاختصاص ، مع ملحظ مهم هو أن هذا الوصف ﴿ ٱلۡحَقُّ ﴾

---

(١) مصاعد النظر ١٩٣/٢ .

(٢) الكشاف ٣٤٨/٢ .

(٣) أنوار التنزيل ٥١٢/١ .

لم يقع للمنزل خبرا في الذكر الحكيم في غير هذا المطلع ، وإنما جاء مجرورا (بالحق) واصفا ما يحويه الكتاب أو ما نزل به الكتاب[1] . نعم وصف الكتاب بأنه حق لكنه ليس بهذا التركيب في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (هود:١٧) ما لكتاب تباعد ذكره في هذا التركيب فلم يصرح بذكره لأن مطلع الآية ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ .

وعطف على هذا التركيب قوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ولم يأت هذا التركيب سوى ما هنا وما في هود وما في غافر في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (غافر:٥٩) ، وهذا الاستدراك «راجع إلى ما أفاده القصر من إبطال مساواة غيره له في الحقية إبطالا يقتضى ارتفاع النزاع في أحقيته ، أي ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بما دلت الأدلة على الإيمان به ، فمن أجل هذا الخلق الذميم منهم يستمر النزاع في كونه حقا»[2] .

وقد أشار الأستاذ سيد قطب إلى ما أجمله هذا المطلع فيما تقصد السورة إليه فقال : «هذا هو الافتتاح الذي يلخص موضوع السورة كله ، ويشير إلى جملة قضاياها ، ومن ثَمَّ يبدأ في استعراض آيات القدرة»[3].

وهذه الآية منزلة من السورة «منزلة الديباجة من الخطبة»[4] عند ابن عاشور لأن الآية الثانية عنده استئناف ابتدائي هو ابتداء المقصود من

---

(١) البقرة ١٧٦، ٢١٣، آل عمران ٣، النساء ١٠٥، المائدة ٤٨، الأنعام ١١٤، يونس ٩٤، الإسراء ١٠٥، سبأ ٦، الزمر ٢، الشورى ١٥، الحديد ١٦ .

(٢) التحرير والتنوير ٧٦/١٣ .

(٣) في ظلال القرآن ٢٠٤٤/٤ .

(٤) التحرير والتنوير ٧٩/١٣ .

السورة . نعم الآية استئناف ابتدائي لتفصيل المقصود من السورة ولهذه الصلة ﴿ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ صدى في تراكيب السورة ، هذه الآية هي أول الصدى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ (الرعد:٢) ، جهة الإنزال التي نصت عليها الصلة في المطلع ، وقابل بهذه الآية قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ (الرعد:٣) مع ملحظ مهم في بيان آية السموات هو أن قوله فيها : ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ﴾ يتأثر عنه قوله في آية الأرض : ﴿ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ وآيات مد الأرض ، وإن جاءت في سورتين أخريين ، [1] إلا أنهما لم تشتملا على التفصيل الذي هنا ، فقد رشح هذا التركيب للآية بعده ، لاسيما قوله : ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ الذي ينص على اتخاذ أصل كل منتج ، ترى صدى تركيب هذه الآية في قوله : ﴿ وَفِى ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ وهو متلائم مع قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ ولا تجد كهذه التراكيب في الذكر الحكيم . في النص على كون النخيل وغيره صنوان وغير صنوان ثم هذه الجملة ﴿ يُسۡقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ﴾ ، وقد وقع ذكر السماء (جهة الإنزال) بين الكتاب المنزل بالحق ، وبين ذكر الماء والسورة تأخذ بتراكيبها في إثبات أن القرآن حق في نفسه بهذه المقابلة بينه وبين الماء الذي لا يدفع أحد في أنه حق في نفسه ، وقد سبق الماء ببيان جهته ، وببيان طبيعة متلقيه ﴿ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ والنص على اتحاد القطع في الأصل ، والاتحاد في المشرب ، واختلافها في الإثمار ، وفي مذاقها ، وهيئاتها .

وليست هذه الاستنباطات بعيدة من نور قوله : ﷺ « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة قبلت

(١) الحجر ١٩ ، ق ٧ .

الماء ، وأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، فكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها ، وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى منها ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ، ونفعه ما بعثني الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[1] .

وقد فسر مجاهد ـ رحمه الله ـ الماء في الآية بأنه «ماء السماء كمثل صالح بني آدم وخبيثهم أبوهم واحد) .

كأن من دلائل السورة على أن الكتاب حق في نفسه ، تأثر الناس به بالإيجاب وبالرفض بحسب طبائعهم كاستجابة الأرض للماء ، لأن جهة الإنزال واحدة ، كما سيأتي بيانه من تراكيب السورة .

وجاء قوله تعالى : ﴿ **وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ** ﴾ (الرعد:٥) متناسبا مع قوله : ﴿ **لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ** ﴾ (الرعد:٢) ، وقولهم هذا إنكار في جزء من الحق (البعث) ثم استعجلوا العذاب .

ولما طلبوا آية لم يجابوا إليها ، وإنما قيل للنبى ﷺ ﴿ **إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** ﴾ (الرعد:٧) «فلو علم ـ الله تعالى ـ أنهم طلبوا ذلك لأجل الاسترشاد ، وطلب البيان ومزيد الفائدة ، لأظهره الله تعالى وما منعهم عنه»[2] . وأظهر الأسلوب سعة علم الله في ذلك بالمقابلة وبالطباق ، ليتميز هذا الأمر تميزا واضحا (تغيض ـ تزداد) ﴿ **عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ** ﴾ ﴿ **سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ** ﴾ .

---

(١) فتح البارى ٢١١/١، والترغيب والترهيب ٥٧/١ .

(٢) مفاتيح الغيب ١٩٨/٩، ١٩٩ .

وجاء قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ﴾ (الرعد:١١) متواصلا مع قوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ (الرعد:٦) وكل هذه التراكيب متناغية مع ما مضى فهناك صلة بين تغيض وتزداد وبين يسقى بماء واحد ، وبين من أسر . . . ومن هو مستخف ، ويغشى الليل والنهار .

وجاء قوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ ﴾ (الرعد:١٢) ملائما مع قوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ . . . ﴾ وقوله : ﴿ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ له صداه في التمثيل في قوله : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الرعد:١٧) وأتبع البرق بذكر الرعد إرهاصا لنزول الماء ، أو لنزول العذاب ، وتارة ينزل الرعد أمطارا وتارة لا ، وكل هذه مقدمات لعنصر السورة الرئيسى (الماء) الذي يقابل القرآن الكريم .

وقد جاءت صورة عجز الأصنام عن النفع جاعلة الماء عنصرا رئيسيا ﴿ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾ (الرعد:١٤) وهذا الضلال صور بعد بـ (الظلمات) ، وقد جاء الماء في الصورة عنصرا رئيسيا ، بعد بيان البرق وإنشاء السحاب والرعد فالماء تقوم به كل حياة كما قال ربنا : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾

(الأنبياء:٣٠).

ثم استعار مثلين للكافر والمؤمن (الأعمى والبصير) ومثلين للإيمان والكفر ﴿ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ فأبان عن الطريقين خير بيان بالطباق (الأعمى في ظلمات والبصير في النور) ، ثم استفهم النظم متعجبا ﴿ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ (الرعد:١٦) كأن مثل هذا يمكن أن يكون اعتذارا عن عدم إيمانهم ولا ريب أنه لا يقر أحد بما ذكر النظم ، وتلاءم هذا التعجب مع المطلع ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لأن

هذا الاستفهام بهذا البناء أبان عن كثرة غير المؤمنين ، لغاية جعلتهم بمثابة من اختلط عليه الأمر بتقارب الآلهة مع الله في القدرة على الخلق ولا تجد كهذا البيان في غير هذه السورة .

ثم ضرب الله بعد ذلك مثلين الماء أحدهما ، والفلز آخرهما ﴿ **أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً** ﴾ وجاء النص على جهة الإنزال متلائما مع المطلع ﴿ **وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ** . . . ﴾ ومع ما بعده ﴿ **ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ** ﴾ ، وكاشفا عن جهة إنزال الماء الواحد المذكور في قوله : ﴿ **يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ** ﴾ ، وقوله : ﴿ **فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا** ﴾ ويلاءم بـ ﴿ **فَسَالَتْ** ﴾ قوله : ﴿ **وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ** ﴾ لذلك لا تجد في آية البرق[1] في سورة الروم هذا التركيب وقوله ﴿ **فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا** ﴾ يتشارب من فيض قوله : ﴿ **وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ** ﴾ وقد جعل الأودية هنا فاعلا لسالت وقيده بقيد هو (بقدرها) إشارة إلى الصورة الممثل لها ، فالتشابه ظاهر جدا بين هذا المثل وبين قوله : ﴿ **وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ** ﴾ .

وأكثر أهل العلم على أن التمثيلين تصوير للحق والباطل ، لقوله : ﴿ **كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ** ﴾ ، والأولى بسلك بيان السورة ما عزى إلى ابن عباس رحمه الله ـ في قوله : ﴿ **أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً** ﴾ قال : قرآنا ، وفي قوله : ﴿ **فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا** ﴾ قال : الأودية قلوب العباد[2] . وقد قال الفخر : ـ رحمه الله ـ بعد بيان أن أكثر أهل العلم على أن التمثيلين للحق والباطل : « أنزل من سماء الكبرياء والجلالة والإحسان ماء ، وهو القرآن والأودية قلوب العباد وشبه القلوب بالأودية لأن القلوب

---

(١) الروم ٢٤ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥/٣٦٤١ .

تستقر فيها أنوار علوم القرآن . . . (ثم يقول) كذا هاهنا بيانات القرآن تختلط بها شكوك وشبهات ، ثم إنها بالآخرة تزول وتضيع ، ويبقى العلم والدين والحكمة . فهذا هو تقرير هذا المثل ، ووجه انطباق المثل على الممثل به ، وأكثر المفسرين سكتوا عن بيان كيفية التمثيل والتشبيه»[1] .

وأوجزه ابن عاشور بقوله : «شبه إنزال القرآن الذي به الهدى من السماء بإنزال الماء الذي به النفع والحياة من السماء ، وشبه ورود القرآن على أسماع الناس بالسيل يمر على مختلف الجهات»[2] . ويبدو أن السورة سميت بالرعد ، ولم تسم بالماء إلماعا إلى استعجالهم السيئة قبل الحسنة ، كما أن البرق والرعد إرهاصان للحسنة وللسيئة ، وهذا ظاهر في بيان الآيتين ﴿ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ ﴾ وتسمية السورة بالرعد دون الماء ، إحالة إلى مقدمات العنصر الرئيسي في كثير من تراكيب السورة (الماء) . فدلالة أن الماء والفلز حق البقاء والنفع ودلالة أن الزبد باطل الغناء وعدم النفع ، فبقاء القرآن وعلمه في القلوب دليل على أنه حق في نفسه وعقد بالمثلين فائدة واحدة ، فلذلك قال : ﴿ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ ، لبيان أن مغزى المثلين واحد بقوله : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ . . . ﴾ .

ثم أحال على المطلع بالمثلين بقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾ وفي المطلع ﴿ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ ﴾ وفي مطلع الآية ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً . . . ﴾ فالحق هو الذي يبقى ويدافع عوادي الزمان ببسط منافعه ، والزيف والباطل لا يبقيان وليس فيهما ما يدفعان به نوازل الحدثان ، وهذا الاعتراض ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾ الذي

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٢٦/٩، والقرطبي ٣٦٤١/٥ .

(٢) التحرير والتنوير ١١٦/١٣ .

ينبه بهذا التركيب المباشر إلى هذه الروابط ، ويقع قبل بيان مغزى المثلين ، فلا ينبغي أن تقع فائدة المثلين إلا باستحضار هذه العلائق ، ولن تجد كهذين المثلين في الذكر الحكيم .

وهذا الاستنباط الذي أحاول بيانه مستبصر بكلمة البقاعي ، فعباراته مكتنزة جدا ، وبيانه معطاء إذا ما استصحب في استكشاف بيانات السورة . ثم بين الذكر الحكيم بعد هذين المثلين انقسام الناس تجاه القرآن ﴿ **لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ** ﴾ (الرعد:١٨) .

ومما يغري بالقول بأن المثلين للقرآن هذا التشبيه القائم على المقايسة بين الفريقين في قول الله بعد : ﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ** ﴾ (الرعد:١٩) هو أنه أعاد استعارة الكافر المذكورة قبل المثلين ﴿ **كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ** ﴾ وملحظ آخر هو أنه وصف المنزل بقوله : ﴿ **ٱلْحَقُّ** ﴾ فأشار بهذا التركيب المباشر إلى هذه العلائق بين المثلين السابقين ﴿ **كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ** ﴾ وبين الاستعارات الأربع ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِى** ﴾ (الرعد:١٦) وبين المطلع ﴿ **وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ** ﴾ ﴿ **أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ** ﴾ ولا تجد كهذا التركيب في الذكر الحكيم ، وذلك نور المطلع وصداه ، تتلمسه بتأمل التراكيب المباشرة مع المطلع التي ينشرها الذكر الحكيم . وترى إشارات الأئمة في هذا الباب لمحا في خفاء تضيء لك عباراتهم ضوءا خافتا إن لم تكن شديد الحرص على تحسسه فلينِدَنَّ عنك نورُ كلامهم .

ولله أبو السعود في قوله : عند قوله تعالى : ﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ . . .** ﴾ أي « من القرآن الذي مثل بالماء المنزل من السماء . . . الخالص في المنفعة

والجدوى»[1] ، وقد نظر العلامة ابن عاشور بهذا التركيب إلى أول السورة فقال : «ولهذه الجملة في المعنى اتصال بقوله : ـ في أول السورة ـ ﴿ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾»[2] .

ثم سرد النظم أوصاف الذين استجابوا لربهم ، وأوصاف الذين لم يستجيبوا في تقابل بديع ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ ﴾ (الرعد:٢٠) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ ﴾ (الرعد:٢١) والتقابل ظاهر في الذين لم يستجيبوا قبل هذا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ وقال في المستجيبين ﴿ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ وتابع أوصاف المستجيبين ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ (الرعد:٢٢) وبين جزاءهم ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ ﴾ (الرعد:٢٣،٢٤) ثم قابل أوصافهم وجزاءهم بأوصاف وجزاء غير المستجيبين ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ ﴾ (الرعد:٢٥) .

وأقام جزاءهم على المقايسة ، يستظهر هذا مثلا بتدبر قوله : ﴿ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِى ٱلۡأَخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴾ (الرعد:٢٦) وقد تفرد تشبيه الحياة الدنيا دون نظائره[3] بحرف الجر (فى) الذي أفاد المقايسة ، لأنه داخل بين مفضول سابق وفاضل لاحق ، والتقدير : «وما الحياة القريبة كائنة في جنب الآخرة بالنسبة إليها ، ولا يجوز أن يكون ظرفا للحياة ولا للدنيا ، لأنهما لا يكونان في الآخرة»[4].

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢٨٩/٥ .

(٢) التحرير والتنوير ١٢٣/١٣ .

(٣) يستظهر في المصحف الشريف آل عمران ١٨٥، غافر ٣٩، الحديد ٢٠، ويراجع أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم ص٤٧، ٤٨ ، دكتور إبراهيم الهدهد ـ مكتبة وهبة ، ١٤٤٠هـ .

(٤) الفتوحات الإلهية للشيخ الجمل ٥٠٣/٢ .

والملحوظ أن أوصاف الفريقين تتكرر فيها تراكيب مباشرة ، وتتقابل معاني الفريقين ، لأنهما بطبيعتهما متقابلان ، فكانت المقابلة أنسب الألوان البلاغية بهذا البيان الذي يشتغل ببيان الحق والباطل .

وجاء بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ ﴾ (الرعد:٣١) الذي لا نظير له في غير هذه السورة ، وكأن السياق من الآية الثانية بعد المطلع الذي أجمل المقصود ـ يتحدر تحدرا في بيان دلالة القرآن على أنه حق في نفسه بتراكيب السورة ، وبمقابلته بالماء كما حاولنا استظهاره ـ ليصل إلى هذه الآية التي سبقت ببيان إصرارهم على طلب الآية ، التي سكت الذكر الحكيم عن إجابتها ، واتجه إلى النبي ﷺ بقوله : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (الرعد:٧) وما يزالون يطلبون هذه الآية فيجيب الذكر الحكيم جوابا يشى بأن ما مضى كاف في الدلالة على أنه حق ، ودلالة أحقيته ظاهرة ، لا يخطئ رؤيتها إلا أعمى ، ولا يهتدي إليها إلا بصير ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ (الرعد:٢٧) مع وعينا بما أفاده قوله : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ من الإشارة إلى سرد آيات من نوع خاص بمقصود السورة يستغرق هذه المساحة بين الآيتين التي تصل إلى نصفها ، ولله البقاعي فيما أبصر ولله هداه فيما سطر .

ويذكر الأئمة أن سبب نزول قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا . . . ﴾ هو أن الكفار تذاكروا معجزات الأنبياء لمحمد ـ ﷺ ـ ثم قالوا : «فادع الله تعالى أن يسير عنا هذه الجبال ، ويفجر لنا الأرض أنهارا فنتخذها محارث ومزارع ، ونأكل وإلا فادع أن يحيي لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا ، وإلا فادع الله تعالى أن يصير هذه الصخرة التي تحتك ذهبا فننحت منها وتغنينا»[1] ،

(١) أسباب النزول ص٢٠٦ .

ولعمري إنهم يطلبون ما يغني وما ينفع فيما يظنون ـ والمثلان السابقان للقرآن يصوران ما يبقى وما ينفع ، ألمثل هؤلاء يجاب طلب الآية؟ وقد أوتيها كل لو عقل . ذلك هو القرآن ـ ومع وعينا بأن سبب النزول ما هو إلا إضاءة شكلت جزءا من مقام الآيات ، لكن إيحاءات التراكيب تبقى في الدلالة على مراد القرآن ، وتتسع لكل مقام يستحدث .

الملحوظ أن هذه الآية التي تثبت للقرآن مظاهر هذه القدرة ، جاء فيها جواب لو محذوفا ، مع أنه جاء مذكورا في قوله : ﴿ **لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ** ﴾ (الحشر:٢١) . لكن حذفه هنا جاء تعويلا على السياق مع المطلع ـ كما ذكرنا ـ إلى هذه الآية ، وقد نظر العلماء بالحذف إلى التراكيب التي تقدمت على الآية ، وكأن الحذف إحالة على السياق لاستخراج روابط الآية به .

فهم يقولون : «وهذا متصل بقوله : ويقولون لولا أنزل . . . .»[١] وقطعا هذا القول متصل بالقول الأول[٢] ، والقول الأول متصل بالمطلع ، أو «جواب لو محذوف استغنى بمعرفة السامعين المراد من الكلام عن ذكر جوابها»[٣] أو «لكونه معلوما»[٤] .

ولله أبو السعود ـ رحمه الله ـ فيما يقول : «وجواب لو محذوف لانسياق الكلام إليه ، بحيث يتلقفه السامع من الله تعالى . . . أي لكان ذلك هذا القرآن لكونه الغاية القصوى في الانطواء على عجائب آثار قدرة

(١) الجامع لأحكام القرآن ٥/٣٦٥٤ .
(٢) القول الأول هو الآية ٧ .
(٣) جامع البيان ١٤/١٠٢ .
(٤) مفاتيح الغيب ٩/٢٤٨ .

الله تعالى وهيبته ـ عز وجل . . . . . واقتراحهم ـ وإن كان متعلقا بمجرد ظهور مثل هذه الأفاعيل على يده ﷺ لا بظهورها بواسطة القرآن ـ لكن ذلك حيث كان مبنيا على عدم اشتماله في زعمهم على الخوارق نيط ظهورها به ، مبالغة في بيان اشتماله عليها ، وأنه حقيق بأن يكون مصدرا لكل خارق . . . »[1].

وأبو السعود يحرر لنا السياق ، الذي حاولنا ـ بكلام الأئمة ـ بيانه ، بما قد يسوق ظاهر التراكيب إلى غيره ، وقد ظهر في السياق أن الماء كان العنصر الرئيسى في بيان أن القرآن حق في نفسه ، وأحال حذف جواب لو على هذا السياق ، فتواصل سلك بيان السورة مع المطلع كما قرر البقاعي ، واختبرنا كلامه بتراكيب السورة .

وتتابعت الآية إلى آخر السورة في بيان حال الناس تجاه هذا الحق ووضعت تراكيب مباشرة مع بيان السورة إحالة على استصحاب العلائق البيانية من مثل قوله : ﴿ **أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ** ﴾ (الرعد:٣٣) وفي جزاء المستجيبين ﴿ **أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا** ﴾ مقابلا بنعيم الكافرين الفاني ، وقابل عقبى الذين اتقوا بعقبى الكافرين ، وبما يشبه أن يكون تعليلا لعدم استجابة الله لطلب الآيات بقوله:﴿ **وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ** ﴾ (الرعد:٣٨) وبما يقابل قوله : ﴿ **وَيَسْتَعْجِلُونَكَ** . . . ﴾ بقوله : ﴿ **وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ** . . . ﴾ (الرعد:٤٦) وختمت السورة بما يتناغى مع قول الكافرين في طلب الآية ، وعدم استجابة الله لهم مما أدى إلى إنكار الرسالة ﴿ **وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً** ﴾ (الرعد:٤٣) أي مادمت لم تأت بما طلبنا من آيات .

---

(١) إرشاد العقل السليم ٥/٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١ .

وتتلاءم الآية وقوله تعالى : ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ (الرعد:٢٧) وقوله : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٖ ﴾ (الرعد:٧) .

ويتلاءم قوله : ﴿ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ (الرعد:٤٣) ومع قوله : ﴿ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ. . . ﴾ إلى آخر الآيات الدالة على علمه بما نفوسهم ، وما وراء طلبهم الآيات ، وجاء إنكارهم الرسالة في الختام كاشفا عن دخائل نفوسهم في طلب الآيات ، وملائما لما نسبه سبحانه إلى نفسه من العلم ، ودليلا على بيان أن الكتاب حق في نفسه ، كما أظهرت الأيام صدق مقولاته ، فتلاءم الختام مع المطلع كما قال الأستاذ سيد قطب : «ويختم السورة بحكاية إنكار الكفار للرسالة ، وقد بدأها بإثبات الرسالة فيلتقي البدء والختام»[1].

هذا ما حاولنا في تلمس خيط بيان السورة ، وهو خيط دقيق وخفي جدا ، هدانا إلى استبصاره بيان البقاعي المكتنز الذي اشتمل على كثير من المعاني ، التي حاولنا استخراج شيء منها على قدر ما أوتينا ، وما تزال عبارته وافرة العطاء .

والحمد لله على ما أعطى ووفق .

* * *

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٠٦٥ .

الفصل الثامن

سورة إبراهيم

يبصر البقاعي ـ رحمه الله ـ مقصود السورة ، مستنيرا بنور المطلع وتسمية السورة وخاتمتها ،وقد أبان كلامه أن مقصودها يجمله قوله تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

(إبراهيم: ١، ٢).

يقول : ـ رحمه الله ـ « ومقصودها التوحيد ، وبيان أن هذا الكتاب غاية البلاغ إلى الله ، لأنه كافل ببيان الصراط الدال عليه المؤدي إليه ، وأدل ما فيها على هذا المرام قصة إبراهيم عليه السلام أما التوحيد فواضح ، وأما أمر الكتاب فلأنه من جملة دعائه ـ لذريته الذين أسكنهم عند البيت المحرم »[1].

وذلك المقصود الذي قرره جاءت على مقتضاه الجملة النحوية ومتعلقاتها التي كونت مطلع السورة الكريمة ، ولا يدفع ما قرره اختلاف

(١) مصاعد النظر ١٩٨/٢ .

وجه الإعراب في هذه الجملة ولا يتعارض مع ما قرره من أن مقصود سورة آل عمران : التوحيد فمقصودها ـ فيما أرى ـ كان في بيان حقيقة التوحيد ، ومقتضيات صفة الوحدانية ، كما ظهر من مطلعها ، وفي بيان حقيقة خلق عيسى عليه السلام وسورة إبراهيم عليه السلام بيان عن حال الداعين إلى التوحيد وحال المدعوين إليه ، وعاقبة كل كما سيظهر من تراكيبها ومن بيان ما اختصت به ، وذلك أمر تكشفه ذات تراكيب المطلع في السورتين .

وهم يختلفون في إعراب (كتاب) فإما أن يكون مبتدأ خبره جملة (أنزلناه) وإما أن يكون خبرا عن (الٓر) وجملة (أنزلناه) صفة له ، مع مراعاة أن الزمخشري ـ رحمه الله ـ يفسر الكتاب بالسورة[1] ، كما مضى في مطالع كل السور ولا يذكر قولا غيره ، مع وعيه بمقالات المفسرين ، وهو تفسير يتناسب مع اختصاص كل سورة بمقصود ، وقد وقع بعد هذه الجملة قوله : ﴿ لِتُخۡرِجَ . . . ﴾ بلام التعليل التي تحدد مهمة هذه السورة ، بدخولها على هذه الجملة ، فمهمة السورة إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وقد دفع هذا التركيب الشيخ عبد المتعال الصعيدي إلى القول بأن مقصود السورة (بيان الغرض من نزول القرآن) ، وقد انقسمت السورة عنده في هذا الغرض إلى ثلاثة أقسام :

الافتتاح ويتضمن بيان الغرض (١-٣) ، ثم الانتقال إلى بيان موافقة القرآن للكتب المنزلة قبله في هذا الغرض (٤-١٩) ، ثم الانتقال إلى تحذير مشركي مكة من تكذيبه بما حصل للمكذبين قبله (٢٠- آخر السورة)[2] .

---

(١) الكشاف ٢/٣٦٥ .

(٢) انظر : النظم الفنى للقرآن ص١٦١ وما بعدها .

لكن استنباط البقاعي ـ فيما يبدو ـ جاء من غاية الإخراج ﴿ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ ، وهم يعدون قوله : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ اعتراضا ، وقوله : ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطِ ﴾ بدلا من النور بتكرير العامل ، أو استئنافا . كأنه قيل : إلى أي نور؟ فقيل : إلى صراط[1] . . . . قالوا : «ولا يضر هذا الفصل بين المبدل منه والمبدل لأن ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ معمول للعامل في المبدل منه ، وهو ﴿ لِتُخْرِجَ ﴾»[2] «ويعدون لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهِ ﴾ بدلا أو عطف بيان»[3]، أو مؤخرا من تقديم ، والأصل إلى صراط الله ونكتته اقتضاء سؤال مؤداه من العزيز الحميد؟ واستبعدوا كونه نعتا ، لأن اسم الذات لا ينعت الصفة[4].

والتركيب بهذه الهيئة يكشف غاية الكتاب (السورة) ويكشف أن ما قرره البقاعي جاء على ما اقتضاه نظم المطلع . وإنما جاء بهذا التزاحم في المعاني ، لبيان غاية الكتاب ، وغاية الرسالة ، وبيان أنهما من أعظم المنن ، بإخراجهما الناس من الظلمات إلى النور ، وعلق هذا الإخراج بالإذن من الله ، بيانا للامتنان على الرسل بنعمة الوساطة ، وتلمح صفة التوحيد في لفظ ﴿ ٱلنُّورِ ﴾ فلم يقل (الأنوار) وتلمح في جمع الظلمات الإشارة إلى تعدد أنماط الكفر واتحادها في كونها ظلمات ، وطابق بينهما ، وتمحض اللفظات هنا للاستعارة ، التي كانت محتملة في مطلع سورة الأنعام . إشارة للتضاد الذي تتظاهر تراكيب السورة عليه في إجمال دعوة النبيين إلى

(١) يراجع مفاتيح الغيب ٩/٢٧٥ .
(٢) البحر المحيط ٥/٤٠٣ .
(٣) الكشاف ٢/٣٦٥ .
(٤) مفاتيح الغيب ٩/٢٧٧، ٢٧٨ .

النور ، وتخبط الكافرين في الظلمات . وهو أمر ظاهر في تراكيب السورة جميعا وقد فرق ابن عاشور بين قوله : ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ في مطلع الأعراف ، وقوله هنا : ﴿ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ ﴾ وعلل لإظهار الفاعل هنا ، بأن المقام مقام امتنان ، أفاده التعليل بقوله : ﴿ لِتُخْرِجَ ﴾ وذكر صفة الربوبية وقد تعرض للمنزل إليه هنا للتنويه بشأنه ، وليجعل له حظ في هذه المنة ، وهو حظ الوساطة ، وعلل لاختيار هذين الوصفين ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ بمناسبتهما للمقام «لأن العزيز الذي لا يغلب ، وإنزال الكتاب برهان على أحقية ما أراده الله من الناس . . . والحميد بمعنى المحمود ، لأن في إنزال هذا الكتاب نعمة عظيمة ترشد إلى حمده عليه ، وبذلك استوعب الوصفان الإشارة إلى الفريقين من كل منساق إلى الاهتداء من أول وهلة ، ومن مجادل صائر إلى الاهتداء بعد قيام الحجة»[1] مع ملحظ مهم هو أن اسم الذات الدال على الوحدانية جاء بعدهما .

وقد انبنى المطلع على تقديم وتأخير ، وطباق واعتراض وإضافة وغير ذلك والمطلع وإن كان يتقارب مع مطالع سور أخرى ، إلا أنه امتاز عنها بخصوصيات دقيقة تصور اختصاص السورة بخصائص بيانية ، كما تصور تقاربها مع السور الأخرى لأن الكتاب نزل من الواحد ، واستكشاف هذه الخصائص البيانية لكل سورة ، أمر خفي ودقيق ، دقة الفروق التي بين مطالع السور . وتجد في سور الذكر الحكيم لدقائق فروق تراكيب مطالعها صدى صاخبا متعالي الصوت داخل السورة ينادي بهذه العلاقات التي بين المطلع وبين تراكيب السورة قالب معانيها . وهو ما لحظه الأئمة الربانيون وأشاروا إليه .

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٩/١٣ وما بعدها بتصرف .

فبعد جملة المطلع الذي أعقب بجملة دعائية ، تجد قوله تعالى : ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ** ﴾ (إبراهيم:٤) وهو إجمال وتقديم لدعوة النبيين جميعا لا نظير له في الذكر الحكيم ، وهو متناغ مع المطلع تناغيا ظاهرا ، فقد اكتفى بما صور في المطلع من الإيمان والكفر ﴿ **ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ** ﴾ وشرع هنا في تفصيل الغرض بسرد قصص النبيين ذلك ما ذكره الألوسي عند قوله : ﴿ **وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ** ﴾ (إبراهيم:٥) بقوله : « شروع في تفصيل ما أجمل في قوله : وما أرسلنا »[١].

وعلل أبو السعود لتقديم الضلال على الهدى المرتبين على تبيين الرسل بأنه وقع « للمبالغة في بيان ألا تأثير للتبيين والتذكير من قبل الرسل ، وأن مدار الأمر إنما هو مشيئته تعالى ، بإيهام أن ترتب الضلالة على ذلك أسرع من ترتب الاهتداء وهذا محقق لما سلف من تقييد الإخراج من الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى »[٢] .

مع ملحظ مهم هو أنه لم يقع في الذكر الحكيم ترتيب للضلال والهدى على النبيين غير ما هنا وشيء آخر هو أن قوله : ﴿ **بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ** ﴾ لم يقع في غير هذا المطلع ، لذا تجد له انتشارا داخل السورة ، لا تجده في سورة أخرى[٣] ، فقد وقع مضافا لهذا الوصف (الرب) ثلاث مرات (١-٢٣-٢٥) ، ومضافا إلى لفظ الجلالة (الله) مرة واحدة (١١) وهو منتشر في سور أخرى[٤] أكثر من انتشاره هاهنا ، وانتشاره هنا بإضافته لصفة الربوبية ألصق بمقام الامتنان . وإضافته للفظ الجلالة هنا تشبه في سياقها سياقات

---

(١) روح المعاني ١٣/١٨٧ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٥/٣١٨ .

(٣) سور الأعراف ٥٨ ، وسبأ ١٢، والقدر ٤ .

(٤) سور البقرة ٩٧، ١٠٢، ٢٤٩، ٢٥١، آل عمران ٤٩، ١٤٥، ١٤٦، النساء ٦٤ .

المواضع الأخرى في القرآن ، ومن التراكيب المباشرة التي تنادي على علاقتها بالمطلع ما وقع في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (إبراهيم:٥) الذي لا نظير له في قصة موسى في الذكر الحكيم ، وقد علل أبو مسلم الأصفهاني بأن ذلك قد وقع لبيان «أن المقصود من البعثة واحد في حق جميع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وهو أن يسعوا في إخراج الخلق من ظلمات الضلالات إلى أنوار الهدايات»[1] . مع ملحظ مهم هو أنه قدم ذكر موسى عليه السلام لأنه أكثر الأنبياء آيات ، واليهود أكثر الناس ضلالات ، وذلك أنسب لمقام الامتنان وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ولهذا المقام وقع العطف بالواو في وقوله : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ ﴾ (إبراهيم:٦) وإنما جاء بالواو لأن العطف ـ بطبيعته ـ يقتضي المغايرة ، إيهاما بأن الصفتين أصبحتا جنسين ، لاشتداد الاتصاف بكل منهما ، ذلك ما ألمع إليه الرازي الحنفي بقوله : «حيث حذف الواو جعل التذبيح والتقتيل تفسيرا للعذاب وبيانا له وحيث أثبتها جعل التذبيح كأنه جنس آخر غير العذاب ، لأنه أوفى على بقية أنواعه وزاد عليها زيادة ظاهرة ، فعلى هذا يكون إثبات الواو أبلغ»[2] أي لأنه ألصق بهذا المقام الذي أبان عنه المطلع . مع ملحظ مهم هو أن بناء قصة موسى هنا يأخذ هيئة المطلع ، بما يطويه التركيب من الامتنان بأول كلمة ، وبما يتناسب مع صفتي العزيز والحميد اللتين أتيتا متأخرتين في المطلع فتأخر معناهما في قصته أيضا في قوله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ ﴾ (إبراهيم:٧) .

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٨٦/٩ .

(٢) مسائل الرازى وأجوبتها ص٢٢٢ .

وجاءت قصة موسى بين إجمالين أولهما : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا ﴾ ـ وثانيهما : ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ ﴾ (إبراهيم:٩) والقصة تتخذ هيئة المطلع في بنائها ، وكذلك الإجمال الثانى الذي لا نظير له في الذكر الحكيم ، والبقاعي ـ لا محالة ـ كان ناظرا إلى مثل هذه التراكيب في السورة ولا كقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ في استقصاء مقولات الرسل جميعا والجملة اعتراض معناه أنهم من الكثرة بحيث لا يعلمهم إلا الله فيما يقول جار الله العلامة ، ودفعه أبو حيان بأنها لم تقع بين جزأين أحدهما يطلب الآخر[1] والقول ما قال جار الله لأن الجملتين ، وإن لم تتلازما لفظا ، فقد تلازمتا معنى .

ولا كقوله تعالى : ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ ذلك القول البديع الذي يحتمل عدة معان هي ـ عند التحقيق ـ لا تتعارض ، بل يتآخى كل ما رآه العلماء ليصلح كله تفسيرا لهذه الجملة ، التي تستغرق بما تحتمله من معان كل مواقف الكافرين ويستعان في فهمها بما فصلته سورتا الأعراف وهود من ردود الكافرين ، فأقوال الرسل ما بين تذكير بالنعم ، وإنذار بالعذاب وإتيان بالآيات ، وأقوال الكافرين ما بين كفر وتكذيب وسخرية وتسفيه ، واستبعاد لاجتماع البشرية مع الرسالة ، واستعجال بالعذاب وتوعد بالإخراج . ولعل اختلافهم في معنى هذه الجملة كان بنظرهم إلى قصص النبيين في الذكر الحكيم ، ولعل الذين عدوا اليد مجازا عن النعمة ، كانوا ناظرين إلى مقام الامتنان في مطلع السورة وفي قصة موسى عليه السلام

(١) يراجع الكشاف ٣٦٨/٢، والبحر المحيط ٤٠٨/٥، والدرر اللقيط ٤٠٨/٥ بهامش البحر المحيط .

وقد بلغت أقوالهم في الجملة عشرة أقوال[1] كشفت عن جهات نظرهم ـ رحمهم الله ـ ثم كشف التركيب عن اتحاد دعوة الرسل ـ ناظرا إلى المطلع ، ولعل الضمير في قول الكافرين : (بما أرسلتم به) يعود إلى التوحيد ، وهو ما فسر به القرطبى قوله : ﴿ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ ﴾ من

(١) قد تأول العلماء عدة معان ، فإن كان المراد باليد والفم الجارحتين ، ففيه ثلاثة أوجه : فإن كان الضمير عائدا إلى الكفار في (أيديهم) فللمعنى أربعة أوجه : الأول : أن الكفار ردوا أيديهم في أفواههم فعضوها من الغيظ ، الثاني : أنهم لما سمعوا كلام الأنبياء ضحكوا سخرية ، فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كمن غلبه الضحك . الثالث : أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين إلى الأنبياء بالسكوت . الرابع : أنهم أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما تكلموا به .

الوجه الثانى : أن يكون الضمير راجعا إلى الرسل ، والمعنى على ذلك إما أن يكون أن الكفار أخذوا أيدي الرسل ، ووضعوها على أفواههم ليسكتوهم وإما أن يكون أن الرسل لما يأسوا منهم سكتوا ووضعوا أيدي أنفسهم على أفواه أنفسهم ، فعل من ذكر كلاما عند قوم فأنكروه فخافهم .

الوجه الثالث : أن يكون الضمير في أيديهم راجعا إلى الكفار وفي الأفواه إلى الرسل ، والمعنى ذلك إما أن يكون أن الكفار لما سمعوا وعظ الأنبياء ، أشاروا بأيديهم إلى أفواه الرسل تكذيبا لهم وإما أن يكون أن الكفار وضعوا أيديهم على أفواه الأنبياء منعا لهم من الكلام على سبيل المبالغة وإذا كان المراد باليد المجاز ، فتكون اليد مجازا عن الحجة باعتبارها نعمة ، ولما كان القبول تلقيا بالأفواه عن الأفواه ، كان الدفاع ردا في الأفواه .

أو أنه مجاز عن سكوتهم عن الجواب ، ورد هذا الوجه بجوابهم بالتكذيب (يراجع مفاتيح الغيب ٢٩٤/٩ وما بعدها) واستحسن ابن عاشور أن يكون المعنى أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدة الضحك من كلام الرسل ، كراهية أن تظهر دواخل نفوسهم ، وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء بالرسل . التحرير والتنوير ١٩٦/١٣ .

التوحيد[1] وهو ناظر إلى لفظ الجلالة الذي وقع بدلا من قوله : ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ﴾ الذي وقع بدلا من قوله : ﴿ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ الذي جاء غاية للكتاب ، وذلك أمر كشفه قول الرسل : ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ الذي لا نظير له في الذكر الحكيم بهذا الاستفهام الإنكاري الداخل على الظرف « لأن الكلام ليس في الشك إنما هو في المشكوك فيه ، وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه»[2] أرأيت كيف ذكر التوحيد بعد التذكير بالنعم وبالبينات تلك إيحاءات هيئة التركيب تنادي على العلاقة بينها وبين المطلع .

ولا تجد في الذكر الحكيم جمعا لكلمة الرسل وتوحيدا في البيان عنها ، كما في هذه السورة ، كل هذه القرائن التي تنم بها ذات التراكيب تنادى على صحة ما قرره البقاعي من مقصود السورة .

والسيوطي ـ رحمه الله ـ يفسر الشكر (بالتوحيد والطاعة) في قوله : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ ﴾ ولهذا المقصود اتحدت كلمة الرسل ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ ﴾ (إبراهيم:١٠) ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ ﴾ (إبراهيم:١١) واتحدت كلمة الكافرين ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا ﴾ (إبراهيم:٩) ﴿ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ (إبراهيم:١٠) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ ﴾ (إبراهيم:١٣) ، ووقع الحوار بين الرسل وبين الكافرين ، ثم ظهرت عاقبتهم بعدما استفتح الرسل ، ثم أبين عن موقفهم في اليوم الآخر ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ (إبراهيم:٢١) ثم استغرق الحوار رئيس الضالين (الشيطان) الذي أسرع بالتبرؤ كما فعل المستكبرون ، ثم ذكر عاقبه المؤمنين ، وربطه بالمطلع ببيان مباشر ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ ثم ذيل

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٦٨٣/٥ .
(٢) الكشاف ٣٦٩/٢ .

هذا الحوار بمثلين لكلمة أهل الحق ، وكلمة أهل الضلالة . وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ الذي جمع المثلين «استئناف ابتدائي اقتضته مناسبة ما حكي عن أحوال أهل الضلالة وأحوال أهل الهداية ابتداء من قوله : ﴿ وَبَرَزُواْ ﴾ إلى قوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ ، فضرب الله مثلا لكلمة الإيمان وكلمة الشرك»[1] مع مراعاة أن هذين التمثيلين لم يقعا في غير هذه السورة ، وفي كون العنصر الأول في التمثيل كلمة مناسبة لاتحاد كلمة الرسل وكلمة الكافرين ، ومناسبة لاستعارة الظلمات والنور للكلمتين .

وهذان التمثيلان يتأيد بهما قول البقاعي في مقصود السورة ، لاسيما أن الأئمة فسروا الكلمة الطيبة بأنها (لا إله إلا الله) أو قالوا : هي كلمة التوحيد وفسروا الكلمة الخبيثة بكلمة الشرك[2] ، ومجيء هذين التمثيلين بعد البيان عن أقوال الرسل وأقوال الكافرين يتناسب مع المطلع الذي ذكر التوحيد في آخر متعلقات الجملة كما مضى بيانه وقد ذكر على لسان موسى في بداية الحوار قوله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (إبراهيم:٧) ، وأشار إلى ما عاقب به الكافرين بعد البيان عن ذلك بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ (إبراهيم:٢٨) فوضع أخبار الرسل بين هاتين الآيتين اللتين تتناغيان مع مقام الامتنان في المطلع ، ومع التضاد بين الشرك والإيمان وموقع القصص بين هاتين الآيتين ـ فيما أرى ـ تنبيه إلى تحديد مهمة عرض قصص الرسل كما هو ظاهر في كل سورة .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٣/١٣ .

(٢) يراجع جامع البيان ١٣٥/١٣، ١٤٠، أبو السعود ٣٣٦/٥، ٣٣٧، البحر المحيط ٤٢١/٥، مفاتيح الغيب ٣٣٤/٩، ٣٣٥ ، القرطبى ٣٦٩٦/٥ .

وشيء آخر من التناسب فقد ذكر لجهنم اسما لا نظير له في الذكر الحكيم ﴿ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ وهو متناسب جدا مع تمثيل الكلمة الخبيثة ، ومع تمثيل أعمال الكافرين ، فهذان التمثيلان مهمتهما إفادة إهلاك الكلمة لأصحابها ، وإهلاك ما انبنى عليها ، فكانت عاقبتهم من جنس أعمالهم ، وهو تناسب عجيب يستظهر بتنظيره بتشبيهات أعمال الكافرين في القرآن الكريم[1] ـ وتأمل عناصر التشبيه في كل موضع .

ولأن معنى التوحيد هو السلك الذي انتظم بيان السورة يفسر البيضاوي الضمير في قوله : ﴿ لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (إبراهيم:٣٠) بالتوحيد[2] ، ولهذا الغرض «افتتح الكلام باسم الموجد لأن تعيينه هو الغرض الأهم»[3] في قوله : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ (إبراهيم:٣٢) وهو ناظر إلى المطلع ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ (إبراهيم:٢) وجاء قوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم:٣٤) ناظرا إلى المطلع المشعر بالامتنان وقد علل البقاعي ـ رحمه الله ـ لمغايرة ما ختمت به الآية ، لما ختمت به نظيرتها في النحل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (إبراهيم:١٨) بقوله : «لأن تلك سورة النعم بدئت بالنهي عن استعجال العذاب ، لأن الرحمة أسبق ، ومن الرحمة إمهال الناس وإمتاعهم بالمنافع فالتعبير إذن هنا : وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ، ولكن ربه لا يعاجله بالعقوبة ، لأنه غفور رحيم ، وأما هذه السورة فبدئت بأن الناس في الظلمات»[4] . فجاء الفرق على ما اقتضاه المطلعان وهو أوقع مما

---

(١) آل عمران ١١٦، ١١٧، النور ٣٩، ٤٠، الفرقان ٢٣ .

(٢) أنوار التنزيل ٥٣١/١ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٣٤/١٣، ٢٣٥ .

(٤) نظم الدرر ٤٢٣/١٠ .

علل به ابن عاشور في قوله : «وصيغتا المبالغة (ظلوم وكفار) اقتضاهما كثرة النعم المفاد من قوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ . . . ﴾ »[1] ، لأن ذلك المقتضى واقع في سورة النحل أيضا .

وقد جاء بعد التذكير بالنعم بقصة أبي الأنبياء ـ على الرأي الراجح ـ الذي كان من دعائه ﴿ وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴾ (إبراهيم:٣٦) ولا كهذا التركيب في قصة الخليل في الذكر الحكيم ، فكانت دعوته ﷺ أن يثبته وبنيه على التوحيد وهو التفات إلى مقصود السورة الأعظم ، مع ملحظ مهم هو أن السورة اتبعت في معانيها طريقة تركيب المطلع ، فقد وقعت قصة إبراهيم بعد حوار الرسل جميعا وبعد التذكير بالنعم ، وكان طلبه الثبات على التوحيد من أعظم دعائه ، وذلك يتناسب مع جعل التوحيد في نهاية مقتضيات الجملة النحوية في المطلع ، وقد وقعت قصته بين خطابين للنبى ـ ﷺ ـ في قوله : ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (إبراهيم:٣١) ، وكان من دعاء الخليل ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (إبراهيم:٣٧) وجاء الخطاب الثانى للنبى ﷺ ـ في قوله : ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلاً ﴾ (إبراهيم:٤٢) وكأنه من تمام قوله : ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ (إبراهيم:٢١) وقد اتحدت كلمة الكافرين جميعا ﴿ نُجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ (إبراهيم:٤٤) وترى في قوله : ﴿ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ (إبراهيم:٤٧) تنبيها إلى الوعد في قوله : ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (إبراهيم:١٣،١٤) وقد نبه على أنه من تمام ما مضى بهذا التركيب المباشر أيضا ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ (إبراهيم:٤٨) وذلك لأن السورة تدور بتراكيبها في نسق واحد هو مقصودها . وكان لابن عاشور أن

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٧/١٣ .

يقول : إن قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ «عطف على الجمل السابقة ، وله اتصال بجملة قل تمتعوا»[1] . وقد أبانوا ـ رحمهم الله ـ عن هذا المعنى من الاتصال خير بيان بما قالوا عند قوله : ﴿ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ (إبراهيم:٥٢) .

وقد اختلفوا في المشار إليه على ثلاثة أقوال[2] أن يكون هو كل القرآن ، أو السورة كلها ، أو إلى المذكور من أول قوله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ والعجيب أن الزمخشري[3] لم يذكر غير القول الثالث ، مع أن القول الثاني هو المتلائم مع تفسيره الكتاب في المطلع بالسورة ، وقد قصر ابن عاشور كلامه على القولين (الثاني والثالث) فيما يقول : «الإشارة إلى الكلام السابق في السورة كلها من أين ابتدأته أصبت مراد الإشارة ، والأحسن أن يكون للسورة كلها»[4].

واسم الإشارة رابط مباشر بمطلع السورة ، وهو معلم دال على أن السورة تسعى بتراكيبها إلى مقصود واحد ، هو الذي صرح به في نهاية السورة ﴿ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ .

وهذه العلائق المباشرة تجعلنا نرجح ما استبعده أبو حيان في قوله عند الآية : «وناسب ختم هذه السورة مفتتحها ، وكثيرا ما جاء في سورة القرآن ، حتى إن بعضهم زعم أن قوله : ﴿ وَلِيُنذَرُواْ ... ﴾ معطوف على قوله :

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٥/١٣ .

(٢) مفاتيح الغيب ٣٧٦/٩، إرشاد العقل السليم ٣٧١/٥، البحر المحيط ٤٤٠/٥، البيضاوى ٥٣٦/١، روح المعاني ٢٥٨/١٣ .

(٣) الكشاف ٣٨٥/٢ .

(٤) التحرير والتنوير ٢٥٤/١٣ .

﴿ لِتُخْرِجَ . . . ﴾»[1] كأن هذا الزاعم فيما يرى أبو حيان ـ يرى السورة كأنها جملة واحدة على غير ما اصطلح النحاة من الجمل التي بينها تلازم لفظي ، فالسورة كأنها جملة واحدة لما بينها من التلازم المعنوي والعلائق الخاصة بين تراكيب كل سورة ـ كما حاولنا كشف شيء منها فيما مضى ـ تغرى بقبول مثل هذا القول الذي قال عنه الألوسي : «وهو من البعد بمكان»[2].

وشبيه بهذا القول ما ذكروه عند هذا الختام في قولهم : «فيه من المحسنات رد العجز على الصدر ، فقد افتتحت هذه السورة بقوله : كتاب أنزلناه ...»[3] مع مراعاة أن هذا اللون يقع في النظم في البيت أو البيتين ، ويقع في النثر في الفقرة على ما اصطلح عليه البلاغيون ، كأن القائلين بهذا القول يعدون سورة القرآن جملة واحدة . وقد جاء الانتهاء ناظرا في الابتداء دأب سور الذكر الحكيم .

وما أجمل ما عزاه القرطبي إلى بعضهم ـ وقد سئل هل لكتاب الله عنوان؟ فقال : نعم قيل : وأين هو؟ قال : قوله تعالى : هذا بلاغ[4] لعل القائل كان ناظرا إلى ما اختصت به السورة من جمع كلمة المرسلين وكلمة الكافرين ، وبيان عاقبة كل فكانت السورة خلاصة الرسالات ، لاسيما أن مقصودها التوحيد .

والحمد لله على ما أعطى ووفق .

* * *

(١) البحر المحيط ٥/٤٤١ .

(٢) روح المعانى ١٣/٢٥٩ .

(٣) الصاوي على الجلالين ٢/٢٩١، والفتوحات الإلهية ٢/٥٣٦ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٥/٣٧٢٤ .

الفصل التاسع

سورة الحجر

تدبر تراكيب سورة الحجر ، ومحاولة استظهار بعض خصائصها البلاغية يغري بقبول ما قرره البقاعي ـ رحمه الله ـ في مقصودها فيما يقول : «ومقصودها : وصف الكتاب بأنه في الذروة من الجمع للمعاني الموضحة للحق من غير اختلاف أصلا وأشكل ما فيها وأمثله وأشبهه في هذا المعنى قصة أصحاب الحجر ، فإن وضوح آيتهم عندهم ، وعند كل من شاهدها أو سمع بها ، وضحت عنده كوضوح ما دل عليه مقصود هذه السورة في أمر الكتاب عند جميع العرب ، لاسيما قريش ، وأيضا آيتهم في غاية الإيضاح للحق ، والجمع لمعانيه الدائرة على التوحيد ، المقتضي للاجتماع على الداعي ومن هنا يتضح ويتأيد ما اخترته من الإعراب لقوله تعالى : ﴿ **كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ** ﴾ من تعليقى له بقوله ﴿ **فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ** . . .﴾ على أن لفظ الحجر يدل على ما دل عليه مقصود السورة من الجمع والاستدارة التي روحها الإحاطة المميزة للمحاط به من غيره بلا لبس أصلا»[1] .

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ٢/٢٠٣ .

وهذا المقصود الذي قرره ـ رحمه الله ـ واستدل له يجمله قوله تعالى : ﴿ الٓرٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴾ (الحجر:١) وهو مقلوب مطلع سورة النمل ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ ﴾ ولا تكرر مطالع السور في الذكر الحكيم ، وإنما تتقارب وتتمايز بدقائق في تراكيبها .

وقد اختلفوا في المشار إليه أهو القرآن؟ أم المنزل إلى هذه السورة؟ أم السورة؟ وأكثر أهل العلم على القولين الأول والثاني والثالث هو رأي الزمخشرى ، وقد اختلفوا تبعا لهذا الاختلاف في المراد بالكتاب والقرآن ، والمراد بهما عند جار الله السورة لا غير كأنه قيل : «الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان»[1] ، وتقرير البقاعي للمقصود يلائمه هذا الوجه ، فيكون المعنى تلك آيات السورة الجامعة للكمال والغرابة في البيان .

وقد دفع أبو السعود كون المراد بالكتاب السورة ، لأنه حينئذ لابد من جعل «تلك إشارة إلى كل واحدة منها ، وفيه من التكلف ما لا يخفى»[2] وهو احتجاج عقلي وقد تكون إضافة الآيات إلى الكتاب بمعنى (من)[3] فيكون المشار إليه آيات السورة ، والذين فسروا الكتاب والقرآن بالكتاب كله وجهوا هذين الوصفين بأن الأول : (يفيد اشتماله على صفات كمال جنس الكتب الإلهية فكأنه كلها) . والثاني : يدل على (طريقة كونه ممتاز عن غيره نسيج وحده بديعا في بابه) وأخرت الصفة الثانية المفيدة امتيازه

---

(١) الكشاف ٢/٣٨٥ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٥/٣٧٣ .

(٣) السيوطى بهامشه الفتوحات الإلهية ٢/٥٣٧ .

على سائر الكتب المنزلة ، لأن ذلك أدخل في المدح ، وأدفع لما يظن أن امتيازه راجع إلى استقلاله بصفات خاصة به كما ألمع أبو السعود[1] .

وجاءت الصفتان بالعطف « إشارة إلى التقارير بين المتعاطفين ، وأنهما مقصودان بالذات ، فلذا عطف أحدهما على الآخر »[2] دلالة على اشتداد ظهور الوصفين في الموصوف ، وهذا المفاد البلاغي وارد على كون المراد بالكتاب والقرآن السورة أيضا ، فيكون العطف من قبيل عطف الصفات « بأن يكون الكتاب عبارة عن السورة الموصوفة بالكمال ، والقرآن عبارة عن السورة الموصوفة بأنها المقروء المبين . . . فيرجع المعنى إلى أنه قرآن جامع لفخامة الشأن وغرابة البيان »[3] .

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال جميعا ، والتي احتملها التركيب والسياق الداخلي للسورة ، والسياق الكلي للقرآن الكريم ، بأن هذه السورة أدل سورة في القرآن على هذا المقصود الذي هو بيان أن القرآن جامع للمعاني الموضحة للحق ، فالاختلاف ـ فيما أرى ـ وقع في مثل هذه المواضع لاختلاف جهات نظرهم ـ رحمهم الله ـ فبصائرهم في الذكر الحكيم تتكامل ولا تتنافر يقينا بصدق ما حررت أياديهم ، تقربا إليه ـ سبحانه ـ بالتشرف بمحاولة خدمة هذا الكتاب ، ولئن غاب هذا عن طلاب العلم ، فذلك من سوء النظر .

وقد جاءت السورة في هذا المقصود الذي أجمله المطلع في ثلاثة أطر بعد المطلع ، الإطار الأول حكاية استهزاء مشركي مكة بوضوح آيات

---

(١) ينظر إرشاد العقل السليم ٣٧٣/٥، ٣٧٤ بتصرف .

(٢) الفتوحات الإلهية ٥٣٧/٢ .

(٣) حاشية محيي الدين شيخ زاده على البيضاوي ١٤٤/٢ .

الكتاب في الدلالة على الحق بتراكيب تختص بهذا المقصود ، رغم ورود الاستهزاء في كثير من مواضع الذكر الحكيم ، الإطار الثاني : بيان أن ذلك شأن السابقين في الاستهزاء بالآيات الجامعة للحق ، الإطار الثالث : خاتمة السورة التي تواصلت مع ذكر قصص النبيين وفصلت ما أجمله الإطار الأول حينا ، وأجملت ما فصله الإطار الأول حينا آخر كما سيظهر . وكان سياق الاستهزاء علة تقديم الكتاب على القرآن في المطلع عند ابن عاشور فيما يقول : «فأما تقديم الكتاب على القرآن في الذكر فلأن سياق الكلام توبيخ الكافرين وتهديدهم»[1] وقد «وقعت هذه الآية في مفتتح تهديد المكذبين بالقرآن لقصد الإعذار إليهم باستدعائهم للنظر في دلائل صدق الرسول ﷺ»[2] .

وقد عد ابن عاشور الآية ـ التي تمثل المطلع ـ كالتنبيه والإنذار ، وقوله تعالى : ﴿ **رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ** . . .﴾ مفتتح الغرض[3] وهو لا يدفع ما تقرر فيما قلناه ، فالآية مفتتح تفصيل الغرض ، والسابقة عليها إجمال للغرض .

وسياق الاستهزاء يتعالى بيانه في الآية الثانية ﴿ **رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ** ﴾ (الحجر:٢) ، وقد احتمل هذا التركيب عدة معان ، أرجحها عند أهل العلم أنه جاء على سبيل التهكم والاستهزاء لموافقته للسياق ، وهذا مبني عندهم على أن ربما ـ لاسيما إذا دخلت على المضارع ـ تفيد التقليل والمقام هنا ينادى بإفادتها التكثير ، قالوا :

---

(١) التحرير والتنوير ٩/١٤ .

(٢) المرجع نفسه ٨/١٤ .

(٣) المرجع نفسه ١٠/١٤ .

« والعرب تعبر عن المعنى بما يؤدي عكس مقصوده كثيرا »[1] « والعمدة في ذلك على سياق الكلام ، لأنه إذ اقتضى مثلا تكثيرا ، فدخلت فيه عبارة يشعر ظاهرها بالتقليل ، استيقظ السامع بأن المراد المبالغة على إحدى الطريقتين المذكورتين »[2] . « وهذه طريقة إنما تسلك إذا كان الأمر من الوضوح بحيث لا يحوم حوله شائبة ريب ، فيصار إليه هضما للحق ، فدل النظم الكريم على ودادة الكافرين للإسلام في كل آن . . . وأن ذلك من الظهور بحيث لا يشتبه على أحد ، ولو جيء بكلام يدل على ضده . . . وهذا هو الموافق لمقام بيان حقارة شأن الكفار . . . كما ينطق به قوله : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا . . .﴾ أو ذهابا إلى الإشعار بأن من شأن العاقل إذا عن له أمر أن يكون مظنون الحمد ، أو قليلا ما يكون كذلك أن لا يفارقه ولا يقارف ضده ، فكيف إذا كان متيقن الحمد . . . والمقصود من سلوك هذه الطريقة إظهار الترفع ، والاستغناء عن التصريح بالغرض بناء على ادعاء ظهوره . . . وهذا أوفق بمقام استنزالهم عما هم عليه من الكفر »[3].

وبذلك يكون الاستهزاء واردا على قول من وجه التقليل بأنهم « تدهشهم أهوال ذلك اليوم فيبقون مبهوتين ، فإن كانت منهم إفاقة في بعض الأوقات من سكرتهم تمنوا فلذلك قلل »[4] .

وقد جاء هذا الأسلوب ردا على استهزاء الكافرين بوضوح الآيات ، وفي النظم معلم ظاهر فقد استخدم في رد استهزائهم حرفا لم يقع في غير هذه

(١) الكشاف ٣٨٦/٢ .
(٢) الانتصاف بهامش الكشاف ٣٨٦/٢ .
(٣) إرشاد العقل السلم ٣٧٥/٥، ٣٧٦ .
(٤) البحر المحيط ٤٤٥/٥ .

السورة (ربما) واستخدم في حكاية استهزائهم حرفا لم يرد في غير هذا الموضع (لوما) في قولهم : ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (الحجر:٧) وهو محكى بعد قولهم ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الحجر:٦) ولما كان متاعهم في الدنيا مغريا باستهزائهم ، ذكر بين رد استهزائهم وحكايته علة الإمهال ، بهذا التناغم والتواصل البديع الذي يتعالى صداه داخل السورة الكريمة ، كما سنحاول الوقوف على بيان شيء منه .

وفى تعليل الإمهال مفارقة عجيبة في مجيء الواو على غير قياس في قوله : ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ وعللوا لذلك بأنه وقع «لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف»[1] مع أن العطف يقتضي المغايرة ، فكأن الكتاب المعلوم أصبح جنسا في علة تأخير العذاب ، وقد أكد هذه العلة بقوله : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ (الحجر:٥) لبيان أنه لا هلاك قبل سبق الكتاب ، وفي هذه الواو قال القاضى منذر بن سعيد : «هذه الواو التي تعطي أن الحالة التي بعدها في اللفظ هي في الزمن قبل الحالة التي قبل الواو ، ومنه قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ . . . ﴾[2] ، وهو استعمال متناسب مع قوله : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ (الحجر:٣) وهو أمر مجازى في التهديد والوعيد ، وقد ذكر ابن عاشور أن قوله : ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ (الحجر:٦) معطوف على قوله : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ . . . ﴾ «والمناسبة أن الجملة المعطوف عليها تضمنت انهماكهم

(١) الكشاف ٣٨٧/٢ .

(٢) البحر المحيط ٤٤٥/٥ .

في الملذات والآمال ، وهذه تضمنت توغلهم في الكفر والتكذيب»[1] وحكاية استهزائهم تتضمن الاستهزاء بالذكر ومن نزل عليه ، وتنزل الملائكة وما سبق كان ردا له ، وما وقع من الوعيد تناسب مع ما يتبعه نزول الملائكة وعدم الإيمان من الإهلاك ، وكان هذا المطلب لهم ـ فيما يزعمون ـ هو الدليل الواضح على أن الذكر حق ، فأحالتهم السورة على ما هو أوضح في ذلك ، لجمعه المعاني الواضحة للحق ، والدليل على جمعه لذلك أنه محفوظ ، وقد اتصل قوله : ﴿ **وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ** ﴾ (الحجر:٩) بالرد ، «دليلا على أنه منزل من عنده آية ، لأنه لو كان من قول البشر أو غير آية ، لتطرق عليه الزيادة والنقصان ، كما يتطرق على كل كلام سواه»[2] .

ويلحظ أن استهزاءهم يتواصل مع الرد الوارد بعد المطلع ، كما أن ما حكاه الله من استهزائهم ، والرد عليه جاء مترابطا ترابطا ظاهرا نبه إليه الشيخ الصاوي في قوله : «والحاصل أنهم قالوا مقالتين الأولى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى** . . . ﴾ والثانية ﴿ **لَّوْ مَا تَأْتِينَا** ... ﴾ وقد رد الله ذلك على سبيل اللف والنشر المشوش ، فقوله : ﴿ **مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ** ... ﴾ رد للثانية ، وقوله : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ** ... ﴾ رد للأولى»[3].

وقد وقع بعد هذا الرد قوله : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١** ﴾ (الحجر:١٠، ١١) وهو تصريح بأن المقام مقام استهزاء ، وسرى عن النبي ﷺ ببيان أن ذلك دأب

(١) التحرير والتنوير ١٦/١٤ .
(٢) الكشاف ٣٨٨/٢ .
(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٢٩٣/٢ .

ـ الكافرين ، ولم يقع استغراق لاستهزاء كل الأمم كما وقع هنا ، وهذا التعميم يفسر لنا قصص هذه السورة ولا يدفع هذا القول ما جاء في سورة يس من قوله : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (يس:٣٠) لأنه هناك جاء في سياق قصة أصحاب القرية ، فقد وقع ذلك على لسان المؤمن : ﴿ يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم . . . ﴾ فإفادة التعميم جاءت هنا بمؤازرة الآية الواقعة قبلها ، ولا كقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (الحجر:١٢) في إيضاحه الحق للمؤمن وللمجرم ، وتقديم هذه الآية بين يدى القصص دلالة ظاهرة على أن القصص في السورة سيدل بتراكيبه على ظهور الآيات الدالة على الحق في كل أمة ، ووقوعه بعد الإخبار باستهزائهم دليل على عدم إيمان الأمم رغم ظهور هذه الحقائق ، وفي قصص هذه السورة من مفردات التعبير ما يدل لما نقول ، مع مراعاة أن التعبير بالمضارع في ﴿ نَسْلُكُهُۥ ﴾ يتلاءم وموقع الآية بين يدى القصص ، والذي يغري بتقبل هذا القول ورود الآية في سورة الشعراء عقب قصص النبيين بالماضى ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ وعقب وصف الكتاب بتمام الإبانة ، ووصفه بالإبانة في مطلع سورة الشعراء ، ولم يرد هذا التركيب في غير هذين الموضعين ، والآية بهذه الهيئة تقابل قوله : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ (الحجر:٢) وما ذكرناه من علة التعبير بالمضارع في ﴿ نَسْلُكُهُۥ ﴾ من قول أبي السعود «وصيغة المضارع لكون المشبه به مقدما في الوجود ، وهو السلك الواقع في الأمم السالفة أو للدلالة على استحضار الصورة»[1] . وكان هذا التركيب ترشيحا لتعليل رد طلبهم إتيان الملائكة ، لأن إيمانهم وعدمه لا يرجع إلى ظهور الحق أو خفائه ، وإنما عدم الإيمان عندهم سمة ثابتة .

(١) إرشاد العقل السليم ٣٨٦/٥ .

كان قوله : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥ ﴾ (الحجر:١٤، ١٥) ، ولا كهذه التراكيب في الذكر الحكيم لاسيما في مواضع الرد على طلبهم نزول الملائكة ، وما أبان عنه النظم من قوة الحجة بقوله : ﴿ فَظَلُّواْ ﴾ «ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون»[1] وحكاية قولهم بالتضعيف ﴿ سُكِّرَتْ ﴾ تناسب تجدد العروج ، وقوله ﴿ بُرُوجًا ﴾ يناسب قوله : ﴿ يَعْرُجُونَ ﴾ والتعبير بفى يتناسب مع قوة الحجة ويكشف عن تتابع العروج داخل السماء ، ولو قال : لقد جعلنا للسماء بروجا ما تناسب مع قوة بيان هذه الحجة المتناسب مع مقصود السورة المجمل في مطلعها ، وقوة الرد على هذه الحجة يدل قطعا ـ لاسيما بعد وقوعه في سياق الحديث عن قوة بيان الذكر ـ على أن قوة هذه الآيات في بيان الحق أقوى مما يطلبون من إنزال الملائكة ، لكن عدم الإيمان دأبهم .

وقد جاءت تراكيب السورة جميعا ناظرة إلى حكاية استهزاء مشركي مكة والرد عليها ، فقوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴾ (الحجر:٢٤) . يتلاءم مع قوله : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ (الحجر:٥) على أن أولى الأقوال بالصواب «ولقد علمنا الأموات منكم يا بني آدم فنقدم موته ، ولقد علمنا المستأخرين الذين استأخر موتهم ممن هو حي وممن هو حادث منكم»[2] ولا يتعارض هذا مع سبب النزول ، في أنها نزلت في شأن المتقدمين في الصف والمستأخرين فيه لشأن النساء فذلك تهديد ووعيد .

---

(١) الكشاف ٣٨٨/٢ .

(٢) جامع البيان ١٨/١٤ .

ثم جاءت قصة إبليس ، وتوسع في عرض النظرة ، تناسبا مع ﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا . . .** ﴾ ﴿ **وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ . . .** ﴾ . ومن خصائص قصة إبليس في هذه السورة تكرر قوله : ﴿ **مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾ ثلاث مرات ، وقطعا لهذه الخصيصة اتصال بالمقصود لا أعرفه ، ومما له اتصال ظاهر في قصة إبليس بالإمهال في قوله : ﴿ **إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ** ﴾ قوله : ﴿ **قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ** ﴾ (الحجر:٣٧) في اختصاص الآية بالفاء هنا الداخلة «على الجملة الاسمية مع التعرض لشمول ما سأله لآخرين على وجه يؤذن بكون السائل تبعا لهم في ذلك . دليل على أنه إخبار بالإنظار المقدر لهم أزلا لا إنشاء لإنظار خاص به»[1] ، وقد وقع بعد قوله : ﴿ **وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ (الحجر:٤٣) لاشتراكهم في الإمهال المذكور في الإطار الأول من السورة .

وجاء بعد ذلك قوله : ﴿ **نَبِّئْ عِبَادِىٓ** ﴾ (الحجر:٤٩) وهو «تقرير لما ذكر وتمكين له في النفوس ، وعطف ونبئهم على ﴿ **نَبِّئْ عِبَادِىٓ** ﴾ ليتخذوا ما أحل من العذاب يوم لوط عبرة يعتبرون بها»[2] والآية ـ كما قال ابن عاشور ـ «استئناف ابتدائي وهو مرتبط بقوله : في أوائل السورة ﴿ **وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ . . .** ﴾»[3].

وكان البقاعي ـ رحمه الله ـ يبصر علل فروق التراكيب في نور المقصود الذي يجمله المطلع ، فيفسر اختصاص قصة إبراهيم هنا بقوله : ﴿ **إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ** ﴾ (الحجر:٥٢) «ولما كان طلبهم في هذه الصورة للملائكة

---

(١) إرشاد العقل السليم ٣٩٨/٥ .

(٢) الكشاف ٣٩٢/٢ .

(٣) التحرير والتنوير ٥٦/١٤ .

على وجه أوكد مما في سورة هود عليه السلام أشار لهم إلى ما في رؤية الملائكة من الخوف ، ولو كانوا مبشرين وفي أحسن صورة من صور البشر بقوله : بلسان الحال أو المقال ﴿ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ وأسقط ذكر جوابه عليه السلام ولا يقدح ذلك ، فيما في سورة هود وغيرها ، من ذكره ، فإن (إذ) ظرف زمان بمعنى حين ، والحين قد يكون واسعا ، فيذكر ما فيه تارة جميعه على ترتيبه وأخرى على غير ذلك ، وتارة بعضه مع إسقاط البعض مع صدق جميع وجوه الأخبار ، لكونه مشتملا على الجميع ، وتكون هذه التصرفات على هذه الوجوه لمعان يستخرجها من أراد الله»[1] وهو في هذا التعليل ناظر إلى قوله : ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَـٰٓئِكَةِ ﴾ (الحجر:٧) .

ويفرق بين قوله هنا في قصة لوط ـ عليه السلام ـ ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ (الحجر:٧٤) وقوله في هود ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ (هود:٨٢) . فيقول : «ولما كان الزجر في هذه السورة أعظم من الزجر في سورة هود عليه السلام لطلبهم أن يأتى بجميع الملائكة أعاد الضمير على المعذبين لا على مدنهم كما في سورة هود عليه السلام لأن هذا أصرح فقال : ﴿ عَلَيْهِم . . . ﴾»[2] .

ويلحظ اختصاص قصة لوط هنا بقوله : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٧٢) .

وهو متناسب مع قوله : ﴿ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا ﴾ ولما كانت القصة في سياق ظهور الآيات والإعراض ، اختصت القصة في السورة بهذين التذييلين ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (الحجر:٧٥) .

---

(١) نظم الدرر ١١٤/٦٥ .

(٢) المرجع نفسه ١١/٧٧ .

وعن ابن عباس وغيره للمتوسمين أى للناظرين[1] ، وقال جار الله : «للمتوسمين المتأملين ، وحقيقة المتوسمين النظار المتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء»[2]، وبالتذييل الآخر ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ (الحجر:٧٦) أى : «وإن هذه المدينة مدينة سدوم لبطريق واضح مقيم يراها المجتاز بها لاخفاء بها ، ولا يبرح مكانها فيجهل ذو لب أمرها»[3] ، واختصت قصة أصحاب الأيكة بهذا التذييل أيضا ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (الحجر:٧٩) أى بطريق واضح ، وهذه الخصائص واضحة العلاقة بالمطلع جدا ، كأن السورة جمع للآيات الواضحة على الحق في الكتاب الناطق والكتاب الصامت وهذا يؤيد ما قرره البقاعي من مقصود السورة .

ثم جاء ذكر أصحاب الحجر ، مضافا إلى أوضح آية على الحق في قصتهم في قوله : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الحجر:٨٠) ، ولا كهذه الإضافة في قصة ثمود قوم صالح ، وآيتهم للعرب أظهر الآيات من قصص السابقين لعظمها وبقائها وأنبأ الله عن سبب عذابهم بقوله : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ (الحجر:٨١) فكان الإهلاك عاقبتهم ، وهذا متناسب جدا مع قوله : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ ... ﴾ وقوله : ﴿ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ في المطلع .

وقال العلامة ابن عاشور «وخص بالذكر أصحاب الأيكة وأصحاب الحجر لأنهم مثل قوم لوط في موعظة المشركين لأن أهل مكة يشاهدون

---

(١) جامع البيان ٣١/١٤ .

(٢) الكشاف ٣٩٦/٢ .

(٣) جامع البيان ٣٢/١٤ .

ديار هذه الأمم الثلاث»[1] واجتزاء هذه القصص ، يشبه أن يكون بيانا وتعليلا لقوله : ﴿ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا ﴾ .

« ولقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ (الحجر:٨٥) موقع لطيف ، فهذه الجملة صالحة لأن تكون تذييلا لقصص الأمم المعذبة . . ولأن تكون تصديرا للجملة التي بعدها»[2] ، وهي كذلك لأنها بداية الإطار الثالث في بيان مقصود السورة فهي متلائمة مع الإمهال المذكور في صدر السورة ، وقوله : ﴿ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (الحجر:٨٩) متلائم جدا مع المطلع ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ ولا كهذا التركيب في القرآن الكريم في وصف النبي ﷺ بأنه نذير مبين ، كما أنه لا نظير للمطلع أيضا .

ثم جاء قوله بعد : ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١ ﴾ (الحجر:٩٠ ، ٩١) وقوله : ﴿ كَمَآ ﴾ متعلق ـ كما قال البقاعي رحمه الله بقوله : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ (الحجر:٨١) وهذا ملحظ بديع من البقاعي[3] ، لأنه حينئذ تشبيه مقلوب ، كأن ثمود قوم صالح أغضوا عن الآيات على ظهورها ، كإعراض مشركي مكة عن آيات القرآن على جمعها للمعاني الواضحة عن الحق ، وهذا المعنى ألصق بالمطلع .

وقد اختلفوا في المقتسمين اليهود والنصارى أم مشركو مكة؟

وأصوب الآراء عند ابن جرير أنهم مشركو مكة ، وأن معنى جعلهم القرآن عضين أى قولهم : إنه سحر وشعر وما أشبه ذلك ، ورجح ما رآه

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/٧١ .

(٢) التحرير والتنوير ١٤/٧٤ .

(٣) ينظر : نص البقاعي في تقرير مقصود السورة ، ص١٨٢ من هذا البحث .

ـ رحمه الله ـ بدلالة «ما قبله من ابتداء السورة، وما بعده، وذلك قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾»[1] وهذا الوصف لهم بالاستهزاء، أشعر به المقام في أول السورة، ولم يصرح به وإنما حكى استهزاءهم، بل اكتفى بذكر ضميرهم عنهم في قوله ﴿ذَرْهُمْ ...﴾ بعد وصفهم بالكفر، فلم يقل: ربما يود الذين استهزأوا، وتعليق ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا . . .﴾ بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يتظاهر على صحة ما قرره البقاعي من أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها.

وقد لمح ابن عاشور العلاقة بين هذه الآيات وبين أول السورة، ونظم ذلك في سلك بديع عند الحديث عن قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ (الحجر:٨٥) فقال: «ثم إن في هذه الآية ضربا من رد العجز على الصدر، إذ كان قد وقع الاستدلال على المكذبين بالبعث بخلق السموات والأرض عند قوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا . . .﴾ وختمت بآية: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ . . .﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ . . .﴾ ثم انتقل هنالك إلى التذكير بخلق آدم . . . ثم إلى سوق قصص الأمم . . . فآن الأوان للعود إلى حيث افترق طريق النظم، حيث ذكر خلق السموات والأرض . . . فجاءت على وزان قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا . . .﴾»[2] وللآية علاقة مباشرة، فهي تنادي على اتصالها بقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا . . .﴾.

ولا كقوله تعالى في الاستعارة للجهر بالدعوة ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ (الحجر:٩٤) المتناسب مع مقصود السورة الذي قرره البقاعي، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ (الحجر:٩٥) ينادي على قوله: ﴿ذَرْهُمْ

---

(١) جامع البيان ١٤/٤٥ بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/٧٧.

﴿ يَأْكُلُوا . . . ﴾ لاسيما بتكرير هذا التركيب المباشر ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الحجر:٩٦) الذي ذكر أول السورة .

وكان الأمر كما قال الألوسي : ـ رحمه الله ـ « ولا يخفى مما ذكره غير واحد من المفسرين مناسبة خاتمة هذه السورة لفاتحتها ، وأن قوله : ـ سبحانه ـ ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ . . . ﴾ في مقابلة : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ »[1] .

وقوله : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (الحجر:٩٩) يتلاءم مع قوله : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا ... ﴾ فالسورة بحكاية الاستهزاء مرة أخرى على ظهور الآيات وضعت القصص في إطار غرض تساق فيه ، وتميزت قصص هذه السورة بفروق دقيقة في التراكيب تنادي على علاقتها بالمقصود الذي أجمله المطلع ، ونظر الختام إلى المطلع دال على أن السورة تدور في رحم واحد هو مقصودها .

والحمد لله على ما وفق .

* * *

(١) روح المعاني ٨٨/١٤ .

الفصل العاشر

سورة مريم

هذه السورة الكريمة تسمى بسورة (مريم) فيما أخرجه الطبراني وأبو نعيم والديلمي من طريق أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني عن أبيه عن جده قال : «أتيت رسول الله ﷺ فقلت : ولدت لي الليلة جارية فقال : والليلة أنزلت عليَّ سورة مريم سمها مريم»[1]. وتسمى أيضا بـ ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ .

وقد تأول الصحابة والتابعون معانى لقوله ـ سبحانه ـ ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ رواها الطبري[2] ، ودفعها الرازي لعدم دلالة اللغة عليها لا بالحقيقة ولا بالمجاز ، ولم يودع الله في كتابه إلا ما جرت عليه سنة اللغة في الدلالة ، ولا تصح هذه التأويلات عند النيسابوري إلا بإسنادها إلى الوحي أو الإلهام[3].

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ٢٥٨/٤ .

(٢) ومجملها أنها اختصار لأسماء من أسماء الله ، واختلفوا في تقديرها ، أو أنها أقسام أقسم الله بها ، أو أنها من أسماء القرآن ، والعجيب أنه تروى عدة تأويلات تسند إلى ابن عباس فالله أعلم . يراجع : جامع البيان ٣٣/١٦، ٣٤ .

(٣) يراجع : مفاتيح الغيب ٣٩٤/١٠ وغرائب القرآن بهامش الطبري ٢٨/١٦ .

وقد ذكر البقاعي تأويلا لها ـ لم يسبق به ، ولم يتابع فيه ـ اعتمد فيه على مخارج الحروف وصفاتها ، ومجمل كلامه أن صفات الحروف ومخارجها من الشدة والانفتاح وغير ذلك تشير إلى مراحل دعوة الأنبياء[1]. وما قاله يمكن أن يقال في كثير من السور المفتتحة بالحروف المقطعة ، ولم أر لصحته وجها ، ويبقى كونها دلالة للتحدي رأيا مستقيما كما مضى بيانه .

وقد أبصر ابن الزبير وجها لمناسبة السورة لما قبلها ـ تابعه فيه الخالفون وكان عند البقاعي هو السبيل إلى البيان عن المقصود ـ يقول : ـ رحمه الله ـ بعد بيان ما اشتملت عليه سورة الكهف من البدائع المستغربة ـ « فكأنه قد قيل : أم حسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا نحن نخبرك بخبرهم ونخبرك بما هو أعجب وأغرب وأوضح آية ، وهو قصة زكريا . . . ليعلم أن الأسباب في الحقيقة لا يتوقف عليها شيء من مسبباتها إلا بحسب سنة الله ، وإنما الفعل له ـ سبحانه ـ لا للمسبب ، وإلى هذا أشار قوله تعالى : لزكريا عليه السلام ﴿ **وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا** ﴾ (مريم:٩) ثم أتبع ـ سبحانه ـ بشارة زكريا بيحيى بإتيانه الحكم صبيا ، ثم بذكر مريم وابنها ـ عليهما السلام ـ ، وتعلقت الآي بعد إلى انقضاء السورة »[2] .

ولم يبين ـ رحمه الله ـ الخيط الذي تعلقت به الآي ، ولعله كان خبيرا به إلا أنه أراد تخليص كتابه (البرهان) لاستبصار المناسبات بين السور ، إلا

---

(١) ينظر : مصاعد النظر ٢٥٧/٢ وما بعدها وقد أطال في هذا التفسير جدا ونظر بين ما يقول وبين سيرة النبي ﷺ في الدعوة .

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن ، ص١٢٨، ١٢٩، ويراجع أيضا تناسق الدرر ، ص١٥٥، ١١٦، وروح المعاني ٥٧/١٦، والتفسير القرآني ٧٢١/٦ .

أن ـ بصيرته تلك هدت البقاعي إلى استبصار مقصود السورة ـ الذي كان السبيل إلى البيان عنه نسبة البدائع والغرائب والنعم والإفضال إلى الله وحده مع ضميمة ما أبصره متناثرا في تراث الأمة وكلام أعيان الأئمة ، ثم أخرجه في ثوب قشيب فيما يقول «ومقصودها : بيان اتصافه ـ سبحانه ـ بشمول الرحمة ، بإضافة جميع النعم على جميع خلقه ، المستلزم للدلالة على اتصافه بجميع صفات الكمال المستلزم لشمول القدرة على إبداع المستغرب ، المستلزم لتمام العلم الموجب للقدرة على البعث والتنزه عن الولد ، لأنه لا يكون لمحتاج ولا يكون إلا مثل الوالد ، ولا سمى له ـ سبحانه ـ فضلا عن مثيل ، وعلى هذا دلت تسميتها بمريم ، لأن قصتها أدل ما فيها على تمام القدرة وشمول العلم»[1].

وبيانه ـ رحمه الله ـ جلي الوضوح في الكشف عن كيفية تشاجر العناصر في الكشف عن المقصود الذي ذكره ، ومراتب هذا التشاجر بقوله : «بإضافة .... المستلزم .... المستلزم .... الموجب إلخ ما قال ـ رحمه الله ـ والسورة تتقارب مع سورة آل عمران ، بل تتقارب في التسمية أيضا ، فمريم هي ابنة آل عمران لذا تجد هناك قصة مريم وزكريا ، وتجدها هنا ، وتجد تقاربا في تراكيب قصتيهما بل ألفاظا بعينها ، تختلف بتقديم وتأخير وغير ذلك في إطار ما اقتضاه مساق مقصود السورة ، ولطيفة أخرى تترجمها هذه الصلة في تسمية السورتين ستأتي محاولة الكشف عنها .

والمطلع الذي لمح فيه البقاعي ـ مع نظره إلى معاني السورة ـ المقصود هو قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ (مريم:١، ٢)،

(١) مصاعد النظر ٢/٢٥٦، ٢٥٧ .

وهم يختلفون في رافع ﴿ ذِكْرُ ﴾ على ثلاثة أقوال رجحوا منها أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف أو مبتدأ والخبر محذوف ، وضعفوا أن يكون خبرا عن ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ لأن المبتدأ لم يشتمل على ذكر الرحمة ، ولم تشتمل الرحمة على معناه »[1] .

وكان نظر ابن عاشور لما اختصت به السورة في ذكر الأنبياء من قوله : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ ﴾ خمس مرات[2] دون مواضع قصص النبيين في الذكر الحكيم ، كان داعيا إياه لاستظهار وجه آخر في رافع قوله : ﴿ ذِكْرُ ﴾ هو أن يكون « ﴿ ذِكْرُ ﴾ أصله مفعولا مطلقا نائبا عن عامله بمعنى الأمر ، أي اذكر ذكرا ، ثم حول عن النصب إلى الرفع للدلالة على الثبات ، وقد جاء نظم هذا الكلام على طريقة بديعة من الإيجاز والعدول عن الأسلوب المتعارف في الأخبار ، وأصل الكلام : ذكر عبدنا زكريا إذ نادى ربه فقال رب . . . فرحمة ربك . . . ، فكان في تقديم الخبر بأن الله رحمه اهتمام بهذه المنقبة له ، والإنباء بأن الله يرحم من التجأ إليه مع ما في إضافة رب إلى ضمير النبي ﷺ وإلى ضمير زكريا من التنويه بهما »[3] .

وكان بهذا التكلف يوطئ للقول بأن قوله : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ (مريم:١٦) معطوف على قوله : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ (مريم:٢) ، وهو عنده من « عطف القصة على القصة فلا يراعى حسن اتحاد الجملتين في الخبرية والإنشائية على أن ذلك الاتحاد ليس بملتزم على أنك علمت أن الأحسن

(١) يراجع : جامع البيان ٣٥/١٦، والكشاف ٥٠٢/٢، ومفاتيح الغيب ٣٩٥/١٠، وإملاء ما من به الرحمن ٥٤٣/٣، ٥٤٤، وغرائب القرآن ٢٩/١٦ .

(٢) الآيات : ١٦، ٤١، ٥١، ٥٤، ٥٦ .

(٣) التحرير والتنوير ٦١/١٦، ٦٢ .

أن يكون قوله : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ مصدرا وقع بدلا من فعله»[1] . ولعل في قراءة ﴿ ذِكْرُ ﴾ بتشديد الكاف على أنه فعل أمر غناء عن كل هذا التكلف ، لأن القراءات تتآزر في إظهار الدلالة ويكون قوله ﴿ وَٱذْكُرْ . . . ﴾ معطوفا على الأحسن في اتحادهما إنشاء .

وعبارة الألوسي في ترجيح إعراب ﴿ ذِكْرُ ﴾ خبرا هي «أى المسمى به ذكر رحمة . . . فإن ذكر ذلك لما كان مطلع السورة الكريمة ، ومعظم ما انطوت هي عليه جعلت كأنها نفس ذكره»[2] بل هي كل ما انطوت عليه .

وفي ذكر المصدر ﴿ ذِكْرُ ﴾ وإضافته لـ(رحمة) ثم إضافة الرحمة (رب)، وإضافة الرب إلى ضمير النبي ﷺ كل ذلك أفاد شمول الرحمة واتساعها ، ولو عبر بغير المصدر ما كان هذا الشمول . وفي موقعه الإعرابي على أن السورة تجري في مقصود ذكر رحمة الله عباده ـ سبحانه ـ لذلك كان المفعول (عبده) ووقع زكريا بدلا منه أو بيانا له ، وكأني بنور كلام الله يوشك أن يدل على أن إضافة الذكر إلى الرحمة في مطلع السورة ، يدل على أن السورة بنيت على ذكر رحمة الله عباده ، وأن إضافة الذكر إلى الرحمة في المطلع أغنت عن الإضافة في السورة فلم يقل : واذكر في الكتاب رحمة ربك مريم ، واذكر في الكتاب رحمة ربك عبده إبراهيم ، واذكر في الكتاب رحمة ربك عبده موسى . . . واذكر في الكتاب رحمة ربك عبده إسماعيل . . . واذكر في الكتاب رحمة ربك عبده إدريس . . . مع ضميمة اختصاص المطلع بهذا التركيب ، واختصاص السورة بهذا التركيب ، وبما فسر به العلماء الكتاب بالسورة .

---

(١) التحرير والتنوير ٧٨/١٦ .

(٢) روح المعاني ٥٨/١٦ .

ولله أبو السعود فيما يقول عند قوله : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ ﴾ (مريم:١٦) «والمراد بالكتاب السورة الكريمة لا القرآن ، إذا هي التي صدرت بقصة زكريا المستتبعة لذكر قصتها وقصص الأنبياء المذكورين فيها»[١] .

ويرى الألوسي أن يكون المراد بالكتاب السورة أو القرآن[٢] ، والعجيب أن أبا السعود ذكر ـ بعد ما جزم بأن يكون المراد السورة ـ عند قوله : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ (مريم:٤١) هذين التأويلين[٣] فلعل تسمية السورة بمريم حملته على الجزم في الموضع الأول ، وأن السياق الذي ذكره هو الذي حمله على هذا وكأنه كان تفسيرا منه لتسمية السورة بمريم ، وأن قصتها هي التي استتبعت قصة زكريا قبلها ، وقصة الأنبياء بعدها ، والذي أراه أن المراد بالكتاب السورة بالنظر إلى علاقة التركيب بمساق السورة ، وأن المراد به القرآن بالنظر إلى مساق السورة في القرآن كله فالله أعلم أي ذلك أراد .

ولعل تعاطف قوله : ﴿ وَٱذۡكُرۡ . . . ﴾ يحملنا بلا منازع على إجراء ما ذكر من قصص النبيين على ما اقتضاه تركيب الآية الأولى في السورة ، فقد جاء بعد ذكر الأنبياء بجملة من الكلام عقدها بما قبلها بفاء التفريع ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ ﴾ (مريم:٥٩) وما بعدها إلى قوله : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَ ﴾ (مريم:٦٤) . وهذه الآية تلفتنا مباشرة ـ بعد مرورها بقصة مريم ـ إلى المطلع في إضافة الرحمة إلى الرب وإضافة الرب إلى ضمير

---

(١) إرشاد العقل السليم ٥/٧٧٧ .

(٢) روح المعاني ١٦/٩٥ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٥/٧٩٠ .

النبي ﷺ فهم يذكرون أن القائل ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ ﴾ هو جبريل عليه السلام الذي كان رحمة الله للبشر ، ولذلك جاء قوله : ﴿ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ بهذه الإضافة تناغيا مع المطلع ﴿ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ ، ولو قال بأمر الله ما تناسب مع المطلع ، وكانت هذه العلاقة نورا مما ضعفه أبو حيان في قوله : «وقد حكى النقاش عن قوم أن قوله : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ ﴾ متصل بقوله : ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ (مريم:١٩) وهذا قول ضعيف»[1] .

وقد اقتضى سياق الرحمة الذي جاء في المطلع أن تكون بشارة مريم هنا بجبريل على ما ذكره الأئمة ، وفي آل عمران بالملائكة ، وليس ذلك الاختلاف مقتضيا تكرر البشارة ، وإنما قد يكون التعبير في آل عمران بالملائكة تعبيرا بالجزء عن الكل فكان جبريل عليه السلام هو الملائكة جميعا ، لأنه رسول الله إلى رسله .

والذي يغري بتقبل ما ضعفه أبو حيان هو أن السياق بعد ذلك بين حال الفريقين نظر بطريق آخر إلى قصة مريم بقولـه : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ (مريم:٨٨) فوضع كفار العرب ، وكفار النصارى في إطار واحد ، وذلك مما يربط سياق السورة بالتوحيد ، الذي مقصود آل عمران ، والذي يثلج الصدر بهذا الملحظ الذي ضعفه أبو حيان أن الذي وقع بعد قـولـه : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ ﴾ (مريم:٦٤) هو قوله : ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ (مريم:٦٥) ولا نظير لقوله : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ في الذكر الحكيم ، وقد لحظ حبر الأمة هذه العلاقة فيما روى عنه «أراد لا يسمى بالرحمن غيره»[2] .

---

(١) البحر المحيط ٦/٢٠٣ .

(٢) الكشاف ٢/٥١٧، ومفاتيح الغيب ١٠/٤٩٢ .

قال النيسابوري قلت : «وهذا صحيح ، ولعله هو السر في أنه لم يذكر لفظ الرحمن في سورة تكريره في هذه السورة»[1] حيث وقع ذلك في السورة في ست عشرة مرة[2] ، وقع لفظ الرحمة أربع مرات[3] ، وهو ما يكشف لنا عن لطائف في كتاب الله .

والعجيب أن سورة الرحمن المسماه بهذا الاسم ، والتى صدرت به لم يذكر فيها لفظ الرحمن غير مرة واحدة ، وهو ما يدل قطعا على أن تكرار لفظة بعينها في سورة دون غيرها ، لا يعني أن ما دارت السورة حوله هو غرضها ، أو غرضا من أغراضها بل هو يمثل عنصرا من عناصر غرض السورة ومقصودها ، فاختصاص مريم بتكرار هذا الاسم الجليل بما لا نظير له في الذكر الحكيم ، وتسميتها مع ذلك بمريم ، وهي مبدوءة بذكر زكريا عليه السلام فكان المقتضى أن تسمى سورة زكريا .

كل ذلك كان داعيا لاستبصار علاقة بين مقصود سورة آل عمران وسورة مريم مع ضميمة ما فرق به الأئمة بين (الرحمن والرحيم) حيث ذكروا أن الرحمن رحمن الآخرة والدنيا ، والرحيم رحيم الآخرة ، وأنه قدم على الرحيم لزيادة هذا المعنى ولأنه لا يسمى به غيره ، وأنه وقع بعد الاسم الأعظم لأنه ناسبه من جهة الاختصاص به دون الرحيم . واستأنسوا لذلك بقوله تعالى : ﴿ **قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ** ﴾ (الإسراء:١١٠)[4] .

---

(١) غرائب القرآن ٦١/١٦ .

(٢) الآيات : ١٨، ٢٦، ٤٤، ٤٥، ٥٨، ٦١، ٦٩، ٧٥، ٧٨، ٨٥، ٨٧، ٨٨، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٦ .

(٣) الآيات : ٢، ٢١، ٥٢، ٥٣ .

(٤) يراجع : جامع البيان ٤٢/١ وما بعدها ، والكشاف ٤١/١، ٤٢، وحاشية السيد الشريف ٤١/١، ٤٢، ومفاتيح الغيب ٢٨٦/١، ٢٨٧، ومسائل الرازى ص٩، والبرهان للكرمانى ص٢٠ وغيرها من تراث الأمة .

أتبصر معي أن هذا التكرار لهذا الاسم (الرحمن) في هذه السورة ، وتسميتها على ذلك بمريم ـ التي ابنها المسيح الذي كان ميلاده المعجز داعيا النصارى للإشراك بالله ، والذي اختصت السورتان (مريم وآل عمران) بقصة ميلاده عليه السلام أتبصر معي أن سورة مريم جارية في مقصود التوحيد ، وأن الرحمة التي نورت هذا السياق تلي الاسم الأعظم في أول سورة آل عمران (الله لا إله إلا هو) أي ولا رحمن إلا هو؟ ما يدل قطعا على أن أسماء السورة توقيفي ، فالله بسر كلامه عليم .

والذي يتأيد به ما ادعيته من هذه العلاقة ما ذكره الأئمة من مثل ما قالوه عند قوله تعالى : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ (مريم:١٣) «أي رحمة من عندنا لا يملك عطاءهما أحد غيرنا»[١] ـ وهو قول الربيع ـ أي لأنها من (الرحمن) الذي لا رحمن إلا هو ﴿ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾ (مريم:٦٥) ، ومن دقة ما قرره البقاعي في بيان المقصود أنه قال : «ومقصودها بيان اتصافه ـ سبحانه ـ بشمول الرحمة بهذا البيان الدقيق»[٢] . فلله دره .

وكان لهذه العلاقة الوثيقة بين السورتين أثرها في تراكيب قصتي زكريا ومريم في الموضعين ، ووقوع الاختلاف في أسلوب السورتين جاء جاريا على ما اقتضاه المقصودان ذلك ما أبصره البقاعي في قوله : في بيان سبب اختلاف نظوم القصص ـ «مثال مقصود سورة آل عمران التوحيد ، ومقصود سورة مريم عليها السلام ـ شمول الرحمة فبدئت آل عمران بالتوحيد ، وختمت بما بني عليه من الصبر ، وما معه مما أعظمه التقوى ، وكرر ذكر الاسم الأعظم الدال على الذات الجامع لجميع الصفات ـ

(١) الدر المنثور ٢٦١/٤ .
(٢) مصاعد النظر ١٥٢/١ .

تكريرا لم يكرر في سورة مريم ، فقال في قصة زكريا عليه السلام : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ وقال في مريم : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ ﴾ ، وقال في آل عمران في قصة مريم ـ عليها السلام ـ : ﴿ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ ﴾ وفي مريم : ﴿ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴾ وغير ذلك بعد أن افتتح السورة بذكر الرحمة لعبد من خُلَّص عباده ، وختمها بأن كل من كان على نهجه في الخضوع لله ـ يجعل له ودا وأنه ـ سبحانه ـ يسر هذا الذكر بلسان أحسن الناس خَلْقا وخُلَقا ، وأجملهم كلاما وأحلاهم نطقا ، وكرر الوصف بالرحمن ، وما يقرب منه من صفات الإحساس من الأسماء الحسنى في أثناء السورة تكريرا يلاءم مقصودها ، ويثبت قاعدتها وعمودها »[1] .

فتناثر الاسمين الجليلين في السورتين معالم دالة على توحد السياقين وتقاربهما لأن الجهة الجامعة هي التوحيد ، فإن سورة مريم من بنات مقصود آل عمران ، وترى دقائق الفروق في مثل ما اختصت به السورة من وصف كبر زكريا عليه السلام بهذه الاستعارة ﴿ وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾ بمؤاخاتها بالسياق الذي وقعت فيه كما يقول الإمام عبد القاهر[2] ـ رحمه الله ـ وهذا السياق الذي قررناه بكلام الأئمة هو الذي اقتضى التعبير بـ (ليال / ١٠) في قصة زكريا بدل (أيام / ٤١) في آل عمران ولا اختلاف بينهما فقد كانت ثلاثة أيام بلياليهن إلا أن المقصود في كل موضع هو الذي اقتضى هذا الفرق الدقيق ذلك قول البقاعي معللا لهذا الفرق « ولما بدئت السورة

(١) مصاعد النظر ١/١٥٢، ١٥٣ .

(٢) دلائل الإعجاز ، ص٤٠٢، ٤٠٣ ، تحقيق الشيخ محمود شاكر .

بالرحمة ، وكان الليل محل تنزلها . . قال : ثلاث ليال ، أى بأيامها كما دل عليه التعبير بالأيام في آل عمران »[1] .

ومن أثر المطلع ﴿ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ ما تراه من الفرق بين قوله هنا : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ (مريم:٩) وما جاء في آل عمران في نفس الحديث ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (مريم:٤) ذلك نور كلمته « ولما بنيت هذه السورة على الرحمة واللطف والإحسان بعباد الرحمن عبر باسم الرب الذي صدرت به بخلاف سورة التوحيد آل عمران المصدرة بالاسم الأعظم فقال : رَبِّكَ . . . »[2] .

وفى نور سياق وصف الله بشمول الرحمة يفسر وجه اختصاص قصة عيسى هنا بقوله : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ (مريم:٢١) ويستظهر بمناظرته بقوله في آل عمران : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ (مريم:٤٥) ، وما ألطف الله بمريم في البشارة بقوله : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (مريم:١٧) أى « إنما مثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه »[3] .

ويفسر في هذا النور وجه اختصاص السورة بقصة مخاضها ، ودلالتها على المخرج ما سيرميه به قومها ، وسياق شمول الرحمة أظهر من أن يخفى ، ويفسر في هذا النور وجه اختصاص السورة بما جاء من قصة إبراهيم ، وقصة بره بوالده التي لا نظير لها في الذكر الحكيم ، والتي تدل بتراكيبها على إخلاص الموعظة لاسيما في اختصاصها بتكرر النداء

---

(١) نظم الدرر ١٢/١٧٧ .
(٢) المرجع نفسه ٢/١٨٦ .
(٣) الكشاف ٢/٥٠٥ .

﴿ يَـٰٓأَبَتِ . . . ﴾ أربع مرات ، وهذا التناغم العجيب في مثل قوله : ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَـٰنِ . . . ﴾ (مريم:٤٥) وكان مقتضى الكلام على غاية ما يصبو إليه بيان البشر (عذاب من الجبار . . .) لكن هذا المقصود المجمل في المطلع وروح اللطف والرحمة يتعالى صداها في التراكيب ، ولا كقوله في قصة إبراهيم ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ (مريم:٤٧) «البليغ في البر والإلطاف»[1] .

ومما يدلك على قوة هذه العلاقة بهذا السياق سياق ذكر بر يحيى بأبيه الذي تقدمت به السن ـ عليهما السلام ـ فكان مظنة العقوق ، وقصة بر المسيح بوالدته عليهما السلام ـ وضعف الأم مظنة العقوق ، فكان ذكر إبراهيم عليه السلام وهو أبو الأنبياء بهذا الجزء من قصته متناسبا مع هذا السياق تمام التناسب ، والنظم يلفتنا إلى قصة زكريا عليه السلام ، ويكشف لنا عما قرره أبو السعود من أن ذكر قصة زكريا والأنبياء اقتضاه مقصود قصة مريم وأسلوبها في هذه السورة .

يقول الخليل ـ بلسان رب العالمين ـ بعد انتهاء دعوته أباه إلى التوحيد ﴿ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ (مريم:٤٨) فلم يقل : وأعبد ربي ولو قال كذلك لما كان قرآنا ، لأن السياق من المطلع سياق دعاء ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ (مريم:٣) وتدبر دقائق فروق النظم فإبراهيم الخليل في مقتبل نبوته وحياته يقول : عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا ، وزكريا عليه السلام يقول في نهاية نبوته وإدبار عمره ﴿ وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ (مريم:٤) عقب ندائه ، كما يقول إبراهيم عقب إخباره بالدعاء والاستغفار ، وهكذا بهذه العلاقات المباشرة التي هي من هم هذا البحث .

---

(١) الكشاف ٢/٥١٢ .

ولا كقوله تعالى في قصة موسى : ﴿ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾ (مريم:٥٢) ولا كقوله ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ (مريم:٥٣) ، ولما كان المقصود وصفه سبحانه بشمول الرحمة ، وتوهم أن المشمول بالرحمة هم المذكورون من الأنبياء في السورة دون غيرهم من الأنبياء ومن الناس ، جاء بهذا التنزيل الذي لا نظير له في التعقيب على قصص النبيين في الذكر الحكيم : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (مريم:٥٨) بهذا البناء المستغرق كل النبيين ، وكل العباد المقبلين على الله وحده .

وكان لابن كثير أن يقول : « يقول تعالى : هؤلاء النبيون ، وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط بل جنس الأنبياء ـ عليهم السلام ـ استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس»[1] . بل وبغيرهم ممن تنطبق عليهم صفة العبودية وذلك من قوله : ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا ﴾ على عكس ما قصره غيره على المذكورين في السورة[2] بقرينة اسم الإشارة والأول ألصق بمقصود السورة الأعظم .

ومما ترى له موقعا عظيما في التناغي قوله : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ (مريم:٦٧) وهو يتعالى صوته في النداء على قوله : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ (مريم:٩) مع ضميمة اختصاص السورة بهما) .

---

(١) تفسير ابن كثير ١٢٦/٣ .

(٢) جامع البيان ٧٣/١٦، وروح المعاني ١٠٧/١٦ .

وهم يذكرون أن قوله : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ (مريم:٧٧) تفريع على قوله : ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾ (مريم:٦٦، ٦٧) يقول العلامة ابن عاشور «وهو تفريع على قوله : ويقول الإنسان . . . وما اتصل به من الاعتراض والتفريعات والمناسبة أن قائل هذا الكلام كان في غرور مثل الغرور الذي كان فيه أصحابه ، وهو غرور إحالة البعث»[1] ، وهو مع هذه المناسبة قدم للقدرة عليه بقصة زكريا ومريم ـ عليهما السلام ـ وبذلك يتلاقى السياق في ترتيبه مع النزول في ترتيبه .

ويتعالى صوت العلاقة بين السورة وبين سورة آل عمران باقتران (الرحمن) مثل قوله : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴾ (مريم:٨٨) وقوله : ﴿ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴾ (مريم:٩١) وقوله : ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ (مريم:٩٢) وما يلفتنا به إلى المطلع الذي أضاف الرحمة إلى الربوبية وأوقعها على العبودية ﴿ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ ﴾ (مريم:٢) بقوله : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴾ (مريم:٩٣) وفي نور هذا السياق يفسر ما أعد الرحمن للمؤمنين من قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴾ (مريم:٩٦) وفي ذلك قال ابن عاشور : «يقتضي اتصال الآيات بعضها ببعض في المعاني أن هذه الآية ، وصف لحال المؤمنين يوم القيامة ، بضد حال المشركين فيكون حال إتيانهم غير حال انفراد بل حال تأنس بعضهم ببعض»[2] ، ناهيك بما ذكره في جانبهم بهذا الاسم (الرحمن) وقد ألمع الزمخشرى إلى لطيفة في التكرير «وفى اختصاص الرحمن وتكريره مرات من الفائدة ، أي هو

(١) التحرير والتنوير ١٥٨/١٦ .

(٢) المرجع نفسه ١٧٤/١٦ .

الرحمن ـ وحده ـ لا يستحق هذا الاسم غيره من قبل أن أصول النعم وفروعها منه»[1] وهو أمر اقتضاه سياق شمول الرحمة .

وقد أبصر العلماء العلاقة بين قوله : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ (مريم:٩٧) وبين سياق السورة في مثل ما يقول الزمخشري : «هذه خاتمة السورة ومقطعها فكأنه قال : بلغ هذا المنزل أو بشر به ، وأنذر ، فإنما أنزلناه . . .»[2] ، وقد جوز الشيخ زاده أن تكون الضمائر في الآية «لهذه السورة الكريمة ، وأن تكون للقرآن كله»[3] ، وذلك كما قررنا من قبل راجع لاختلاف جهات النظر بحسب النظر إلى مساق الآية في السورة ومساق السورة في القرآن .

واختار ابن عاشور أن يكون الضمير عائدا إلى القرآن بدلالة السياق[4] ، ومن لطائف هذه السورة أنها اختصت بقوله في المطلع : ﴿ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ ، واختصت في آخرها بقوله : ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ (مريم:٩٨) والركز في كلام العرب الصوت الخفي على ما قال الأئمة[5] ، وهذا من دقائق العلاقات بين المفردات في السورة الواحدة فهي تكون من بحر واحد ، وأمر المفردات ظاهر في التصاقه بالمقصود الذي حاولنا تقريره بكلام الأئمة ، وجاءت تأويلاتهم جارية على مقتضاه . . .

والحمد لله على ما أعطى .

* * *

(١، ٢) الكشاف ٥٢٦/٢ .

(٣) حاشية محيي الدين شيخ زاده ٣٠٥/٢ .

(٤) التحرير والتنوير ١٧٦/١٦ .

(٥) جامع البيان ١٠٢/١٦، والكشاف ٥٢٧/٢، والدر المنثور ٢٨٨/٤، والشهاب على البيضاوى ٨٦/٦ .

الفصل الحادي عشر

سورة طه

لأهل العلم في ﴿ طه ﴾ أقوال[1] أبعدها من النقد أنها من الحروف المقطعة يقصد بها التحدي ، والذين تأولوا هذه الحروف كانوا ينظرون إلى جريان المعاني في السورة الكريمة .

من ذلك أنهم قالوا : إنها جملة بمعنى (طأها) زاعمين لذلك سببا في النزول ـ ضعفه القاضي عياض ـ هو ما روي أنه ﷺ «كان إذا قام من

(١) قالوا بأنها حروف مقطعة ، واختلفوا في تأويلها فمن قائل إنها اسم من أسماء الله ، أو قسم أقسم الله به ، أو اسم من أسماء النبي ﷺ أو اختصار لأوصاف النبي ﷺ أو رمز حسابي يعني (يا بدر) وغيرها مما لا تدل عليه اللغة ، واستظهر ابن جرير أن معناها (يا رجل) بلغة عك ، واستدل لذلك ببيتين من الشعر ، وزعم غيره أن هذا المعنى باللغة السريانية أو النبطية أو القبطية .
ورد الزمخشرى رأي ابن جرير وزعم ظهور التكلف فيما استشهد به ، وتأول كونها بهذا المعنى على لغة عك بتصرفهم فيها على وجه أنكره أبو حيان .
يراجع : جامع البيان ١٠٢/١٦، ١٠٣، والكشاف ٥٢٨/٢، ومفاتيح الغيب ٥١٨/١٠، ٥١٩، والبحر المحيط ٢٢٤/٦، ٢٢٥، والقرطبى ٤٣٣٧/٦، ٨٣٣٨، ولسان العرب ٢٧١/٤، والتحرير والتنوير ١٨٣/١٦ .

الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام ، وقال بعضهم : يحتمل أن يكون المراد لا تشق على نفسك ، ولا تعذبها بالأسف على كفر هؤلاء ، فإنا إنما أنزلنا عليك القرآن لتذكر به»[1] .

وقالوا : إن أولها قد نزل لقول المشركين للنبى ﷺ « إنك لتشقى بترك ديننا ، وذلك لما رأوه من طول عبادته واجتهاده»[2] .

ورأى السيد الألوسي وجها ومناسبة ـ لما تأولوه من أن ﴿ طه ﴾ جملة ـ لتقديم الأرض على السموات في قوله : ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾ (طه:٤) فيما يقول : «وقيل : لأنه أوفق بمفتتح السورة بناء على جعل ﴿ طه ﴾ جملة فعلية ، أى طأ الأرض بقدميك ، أو لقوله : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ . . . ﴾ بناء على أنه جملة مستأنفة ، لصرفه ﷺ عما كان عليه من رفع إحدى رجليه عن الأرض في الصلاة»[3] ، وهو السبب الذي دفعه القاضي عياض رحمه الله .

وإنما دفعهم إلى كل هذه التأويلات نظرهم إلى بناء اللغة في قوله تعالى : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ (طه:٢، ٣) وهذا النمط من البناء اللغوى دفع ابن الزبير ـ رحمه الله ـ إلى استبصار مناسبة سورة طه لسورة مريم ، إما بين السورة وبين قوله تعالى في مريم : ﴿ خَلْفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ (مريم:٥٩) ، وإما بينها وبين قوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ (مريم:٩٨) . واستظهر الوجه الثاني ، وكل ـ فيما أرى ـ مراد كما سيظهر ـ إن شاء الله ـ وكان كلامه في المناسبة هاديا بصيرة البقاعي في تقرير مقصود السورة كما سيأتي .

---

(١) مفاتيح الغيب ١٠/٥٢٠، ٥٢١ .

(٢) أسباب النزول ص٢٢٨، ٢٢٩ .

(٣) روح المعاني ١٦/١٥٢ .

يقول ابن الزبير : بعد بيان ذكر الله الأنبياء في مريم ، وتذييل ذكرهم بقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ ﴾ (مريم:٥٨) ، وما أتبعه به من قوله : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ (مريم:٥٩) (كان هذا مظنة إشفاق وخوف فأتبعه ـ تعالى ـ بملاطفة نبيه ـ ﷺ ـ ملاطفة المحبوب المقرب المجتبى فقال : ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا . . . ﴾ أو أنه ـ سبحانه ـ لما ختم سورة مريم بقوله : ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا ﴾ (مريم:٩٨) بعد قوله : ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾ (مريم:٩٧) « وقد رأى عليه السلام من تأخر قريش عن الإسلام وردها ما أوجب إشفاقه وخوفه عليهم ـ ولا شك أنه عليه السلام يحزنه تأخر إيمانهم . . . فكأنه عليه السلام ظن أن سيصعب المقصود من استجابتهم ، أو ينقطع الرجاء من إنابتهم ، فيطول العناء ثم أتبع ـ سبحانه ـ ذلك تعريفا وتأنيسا بقوله : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ . . . ﴾ إلى أول قصص موسى عليه السلام فأعلم ـ سبحانه ـ أن الكل خلقه وملكه وتحت قهره . . . فإذا شاء هداية من وفقه لم يصعب أمره ، ثم أتبع ذلك بقصة موسى عليه السلام وما كان منه من إلقائه صغيرا في اليم ، وما جرى بعد ذلك من عجيب الصنع . . . وكل ذلك مما يؤكد القصد المتقدم »[1] .

وإنما نقلته بطوله ، لأنه يكشف لنا تحديد المطلع ، ويبين أنه مجمل للمقصود وأن ما جاء من الآيات بعده ، وقصة موسى وآدم ـعليهما السلام ـ وخاتمة السورة جاء كل ذلك توكيدا للقصد المتقدم في المطلع الذي هو ملاطفة المحبوب والعجيب أن ما ذكروه من سبب النزول يتلاقى مع ما استخرجه ابن الزبير من ذات تراكيب السورتين ، مع مراعاة أن السورتين توالتا في النزول فيما يروى عن ابن عباس وجابر بن زيد[2] ،

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ، ص١٢٩، ١٣٠ .
(٢) تناسق الدرر في تناسب السور ، ص١١٦ .

ويتوافق كذلك مع ما تأولوه في قوله تعالى : (طه) وقد أفرز البقاعي كل هذا التراث فقال :

« ومقصودها : إعلام الداعى ﷺ بإقبال المدعوين والترفق إلى أن يكونوا أكثر الأمم في زيادة شرفه ﷺ وعلى هذا المقصد الشريف دل اسمها المشهور بطريق الرمز والإشارة ليتبين أهل الفطنة والبصارة »[1] .

ثم قابل بين مخارج الحرفين وصفاتهما ، وما أشار إليه من انتشار دعوته ﷺ وأن تأويل (يا رجل) في معناها إشارة إلى قوته وعلو قدره ، وإن كان (طه) بمعنى الجملة (طأ الأرض) فذلك إشارة إلى قوة التمكين . . . إلخ[2] ، وهى معان ـ عند التحقيق ـ مستنبطة من تراكيب السورة ومن بناء قصة موسى عليه السلام من أولها إلى انتشار أمره ، لا من دلالة هذا اللفظ (طه) .

والمقصود عند الشيخ عبد المتعال الصعيدي « حث النبي ﷺ على الصبر على ما يلقاه من إعراض قومه عن دينه ، ولهذا افتتحت بأنه لم ينزل عليه القرآن ليشقى . . . ثم قص عليه بعد هذا قصة موسى من أولها إلى آخرها ليتأسى بما كان من ثباته أمام فرعون . . . ثم ختم السورة بحثه على الصبر كما افتتحها به »[3] .

والسورة ـ عند ابن عاشور ـ « افتتحت بملاطفة النبي ﷺ . . . وفي هذه الفاتحة تمهيد لما يرد من أمر الرسول ﷺ وبكونه من أولى العزم مثل

---

(١) مصاعد النظر ٢/٢٧١ .

(٢) ينظر : مصاعد النظر ٢٧٢، ٢٧٣ .

(٣) النظم الفني ، ص١٩٤ .

موسى عليه السلام وألا يكون مفرطا في العزم كما كان آدم عليه السلام قبل نزوله إلى الأرض ، وأدمج في ذلك التنويه بالقرآن»[1] .

وقد ذكر الأستاذ سيد قطب أن قصة موسى عليه السلام ومشاهد القيامة ، وقصة آدم تسير جميعا في اتجاه المطلع ، وأن السورة ختمت بما يشبه مطلعها[2] والأمر بين في توافق السالفين والخالفين في تحديد المقصود وفي إجمال المطلع له ، ومجيء قصص السورة وأسلوبها وبناء معانيها على مقتضيات بيانية وخصائص تركيبية اقتضاها هذا المطلع الذي يجمل المقصود ، وباستبصاره واستصحاب نوره يستبين نور دقائق التراكيب في السورة ، ذلك النور الكاشف هو قوله تعالى : ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴾ ، ﴿ طه ﴾ نتحدى أن يلاطف أحد أحدا ببيان كهذا البيان ، ألست معي أن التركيب يستقيم لغة بدون قوله : ﴿ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ فيقال : ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة ، وبدون قوله لمن يخشى؟ فماذا أضافت هاتان الكلمتان اللتان اقتضيتا هذه التأويلات التي أوجزناها؟ محاولة لاستكشاف مدب أقدام أسلافنا في توليد أفكار أسلافهم .

لا ريب أن هاتين الكلمتين هما مناطا استخراج الأئمة للمقصود على اختلاف جهات نظرهم ، فسياق السورة هو سياق الملاطفة ، والذي نفسر به الشقاء هو كل ما جاء في الذكر الحكيم من مثل قوله : ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾ (الحجر:٦) و﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ ﴾ (النحل:١٠٣) و﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴾ (الغاشية:٢١)

(١) التحرير والتنوير ١٨٤/١٦ .

(٢) ينظر في ظلال القرآن ٢٣٢٦/٤، ٢٣٢٧ .

و﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (الكهف:٦) ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء:٣) ، وغيرها من آيات الذكر الحكيم ، ومن أسباب النزول ، وما روته كتب السيرة وكتب السنة مما وقع قبل نزول السورة الكريمة ، وما وقع بعدها للنبى ﷺ وما وقع وما يقع لكل داع إلى الحق من لدن أن كانت الدنيا إلى أن تزول ، والذي يهدينا إلى استبصار هذا التأويل هو اختصاص السورة بسرد قصة موسى عليه السلام من لدن أن كان في بطن أمه إلى أن ظهر أمره في سياق الملاطفة ، كما تدل عليه تراكيب القصة باستبصار نظائرها في سياقاتها .

وقوله : ﴿ لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ ـ مع أن القرآن تذكرة للناس كافة ـ ينبهنا إلى ما اختصت به السورة من أوصاف من يخشى مدرجة في سياق الملاطفة ، الذي يستبصر بتنظيرها بنظائرها في الذكر الحكيم ، وقد ألمع الزمخشري إلى هذا السياق بقوله : « ما بعد تنزيلا ... إلا قوله : ﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ تعظيم وتفخيم لشأن المنزل لنسبته إلى من هذه أفعاله وصفاته »[1] .

أتبصر أن هذه الآيات الخمسة تفسير لاختصاص التذكرة بمن يخشى؟ ولكن ماذا ترى لهذه الآيات من خصوصيات سياق الخشية في مقصود الملاطفة؟ ماذا في اختصاص هذا السياق بوصف السموات بـ ﴿ ٱلْعُلَى ﴾ مع أنه مستفاد بقوله : ﴿ تَنزِيلًا ﴾ وبقوله : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا ﴾ ألست ترى أن هذا الوصف مع دلالته على الخشية يدل على الملاطفة ويشرح صدر المحبوب المجتبى ، وبصيرة أخرى أظهر وأقوى وأقهر في قوله في هذا السياق ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (طه:٥) الذي اختصت به السورة هو تقديم

(١) الكشاف ٢/٥٢٩ .

قوله : ﴿ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ على قوله : ﴿ ٱسْتَوَىٰ ﴾ على عكس ما جاء في الذكر الحكيم كله ، زيادة في إظهار العلو والقهر ، وتذكيرا بالعقاب وإلماعا إلى التملك والجبروت ، اقتضاء لسياق ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ وماذا للملاطفة في هذا التركيب الذي يتعاظم إرهابه وتهديده؟

تختص هذه الآية دون نظائرها[1] بعود الضمير في ﴿ ٱسْتَوَىٰ ﴾ إلى ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ مع استبصار خصوصيات هذا الاسم الجليل كما مضى في سورة مريم ألست تبصر أن هذا المقصود فيه نور من سياق الرحمة في مريم؟ وأن السياق هنا تهديد في ملاطفة وتعنيف في رفق؟ وآيات نسبة ملكية السموات والأرض لا تخلو معظم سور القرآن منها ، وتشاركها آية سورة طه ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ (طه:٦) تفترق عنها جميعا بقوله : ﴿ وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ فما حاجة هذا السياق إلى هذه الكلمة التي انفصلت بها هذه الآية عن نظائرها في الذكر الحكيم؟ على أن الثرى قد سبق ذكره ضمنا في الأرض ، والذي أبصره أنه تخويف في ملاطفة يفسر لنا كثيرا من خصائص السورة ، فعلماء السلف يتأولون الثرى بالندى « يقال للتراب الرطب المبتل ثرى . . . عن قتادة : كل شيء مبتل »[2] فهي طبقة الإنبات في الأرض ، وعلى الإنبات تقوم حياة الناس والدواب ، ثم إن هذا اللفظ جاء فيه ذكر الماء ضمنا ، وكل ذلك إلاحة إلى تضييق المعاش لمن يعرض عن هذا المنزل تذكرة،وفيه إلاحة إلى البعث،

---

(١) الأعراف ٤٥، يونس ٣، هود ٧، الرعد ٢، الفرقان ٥٩، السجدة ٤، الحديد ٤، قال تعالى في الحديد ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ . . . ﴾ .

(٢) جامع البيان ١٠٥/١٦ .

وفي هذا السياق يفسر اختصاص السورة بقوله : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (طه:٥٥) وقوله في قصة آدم : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ (طه:١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩) ويتعالى صدى هذه اللطيفة في قوله : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ (طه:١٢٣) الذي قال في نظيره ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة:٣٨) ثم وضع الذكر الحكيم معلما مباشرا لهذه العلاقة لتبصر هذه الخصائص في نور قوله : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ (طه:٢، ٣) بعدما عرض لذكر شقاء آدم ذلك قوله : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (طه:١٢٤) وهم يتأولون الذكر بالقرآن[1] بناء على جريانه في السورة في نحو قوله : ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ (طه:٩٩) .

وقد استبعد الأئمة وقوع الضنك في الآخرة ، ورجحوا أن يكون ذلك في الدنيا أو في القبر[2] ، فهذا شيء من نمط سياق الخشية في مقصود الملاطفة ، ترى نوره يبصرك بأسرار اختلاف نظم القصص .

وإخبار الله عن نفسه بمعرفة الجهر والسر شائع في الذكر الحكيم إلا أنك لا تجد كقوله : ﴿ وَأَخْفَى ﴾ (طه:٧) وهو من نور الخشية في سياق الملاطفة ، وترى معالم ظاهرة اختصت بها هذه السورة تكشف لك هذا

---

(١) مسائل الرازي ص٣١٠ .

(٢) يراجع جامع البيان ١٦٣/١٦ وما بعدها .

الخيط الدقيق في مثل قوله : ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴾ (طه:٦٢) وكان المقتضى (وأسروا التنازع) إلا أن ذلك دل على المبالغة في كتمانهم أمرهم ، وكان السياق هو الذي فسر لنا معنى السر ، وهو أيضا الذي يفسر لنا ما هو أخفى من السر فيها اختصت به السورة من قوله : ﴿ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ (طه:٦٧، ٦٨) وفي تقديم المجرور ما يترجم عن شدة إخفائه مع ما في التعبير بأوجس من هذه الدلالة أيضا ، ويمتد إشعاع هذا الخيط ونوره إلى وصف مشاهد الآخرة ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ١٠٣ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (طه:١٠٣، ١٠٤) الذي لا تجد له نظيرا في الذكر الحكيم على شيوع مشاهد القيامة .

وقد جاءت قصة موسى عليه السلام دائرة في نور المطلع وما تعلق به من آى ، كما سنحاول ـ في عجالة ـ كشف شيء منه ، وقد علل الأئمة لورود قصة موسى عقب هذه الآيات بعلل مجملها تأسى النبي ﷺ بموسى عليه السلام إذ إنه أشد الأنبياء فتنة وبلاء ، والتعريض بأن مآل بعثة محمد ﷺ صائر إلى ما صارت إليه بعثة موسى عليه السلام من النصر على معانديه[1] .

والقرآن بهذا الكلام اللفظى يعقد بين قصة موسى والمطلع وما ساق إليه بحرف العطف ﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ ﴾ (طه:٩) ويظهر أسلوب الملاطفة في قصته بتنظيرها بنظائرها ويظهر أسلوب الخشية فيما أخبر به عن فرعون بموازنته بما جرى في السور الأخرى أيضا ، والمعلم الدال الذي ينبهنا إلى استبصار أسلوب القصة في نور المطلع وما انساق إليه هو قوله في أول

(١) يراجع مفاتيح الغيب ٥٣٨/١٠، وتفسير البيضاوى ٤٦/٢، والصاوي على الجلالين ٤٩/٣، والتحرير والتنوير ١٨٢/١٦ .

القصة الذي أوقعه بدلا مطابقا للوحى الذي يلفتنا بهذا البناء إلى قوله : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ﴾ (طه:٢) ذلك هو قوله : ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ (طه:١٣-١٦) ولا نظير لذلك في قصة موسى عليه السلام في الذكر الحكيم .

وآيات الإخبار عن الساعة شائعة في الذكر الحكيم إلا أنك لا تجد كقوله : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ وهو ـ فيما رجحوا ـ بمعنى أظهرها ، وله من زيادة التخويف ما ترى لاسيما أنه عقد على ذكرها جملة بلام الغرض لا نظير لها في آيات ذكر الساعة ساق إلى ذكرها سياق الخشية ذلك قوله : ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾[1] .

وهذا الموقف ، وسياق هذه الآيات هذا المساق في بداية الوحي بهذا التشابه بينها وبين المطلع وما ساق إليه ، ثم قول موسى عليه السلام في نهاية القصة ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ (طه:٩٨) بعد هذه الرحلة المصورة لدعوته ، وما يفيده قوله : ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ (طه:٩٨) من النظر إلى قوله : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ﴾ (طه:١٥) الذي ينظر إلى قوله : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ ﴾ (طه:٧) الذي ينظر إلى المطلع ، وَضْعُ القصة بين هذين الإطارين مؤذن ، بتشارب تراكيبها من نور المطلع ، والذي يغري بقبول هذا الملمح هو ما يلفتنا إليه قوله عقب القصة

---

(١) لاستبصار هذه الخصيصة يراجع مثلا : الأنعام ٣١، الأعراف ١٨٧، يوسف ١٠٧، الحجر ٨٥، النحل ٧٧، الكهف ١١، الأنبياء ٢٩، الحج ١، ٧، ٥٥، لقمان ٣٤، الأحزاب ٦٣، سبأ ٣، غافر ٥٩، الزخرف ٦١، ٨٥، القمر ١، النازعات ٤٢ .

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ (طه:٩٩) وهو ينبهنا إلى أن ننظر بالقصة وأساليبها وتراكيبها إلى قوله : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ (طه:٢،٣) .

على أن الأئمة يفسرون الذكر في هذا الموضع بالقرآن[1] ، وكأنى بالقرآن الكريم يتعالى صدى تراكيبه في السورة يقول : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ كما لم نوح إلى موسى ليشقى لاسيما أن ذكر القصة قد بني على الوحي وعلى قوله : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ (طه:٢٤) الذي كان من أجله الوحي ، وكان من ملاطفة الله نبيه موسى حديث العصا الذي اختصت به السورة ، وما يحيكه من إيناس الله له ، وكان سياق الملاطفة هو الذي قضى بقلب وضع القصة بعد بيان قصة الوحي ودعاء الله موسى ربه بقوله : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾ (طه:٣٧-٣٩) ويظهر نور سياق الملاطفة بموازنته بما جاء في سورة القصص : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (القصص:٧) ، فالمقام هنا مقام تلطف الله لتثبيت قلب نبيه بتذكيره بالعناية الأولى ـ وهو غير سياق سورة القصص ـ لذا رأيت هنا تهويل الحدث وتفخيمه ﴿ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾ الذي تناسب معه تكرار القذف ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ الذي يتناسب معه الإخبار عن آخذه بقوله : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾ والأمر على غير ما ترى في سورة القصص ، وكل ذلك التهويل والتفخيم ينمحي بقوله :

---

(١) الطبري ١٥٤/١٦، والقرطبي ٤٤١٧/٦، وابن كثير ١٦٤/٣ .

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ (طه:٣٩) رعاية ولطفا لا تراهما في سورة القصص ، وإنما جاء هذا الأسلوب بعد ذكر الوحي كما قال ابن عاشور ليعلم أنه لما كان بمحل العناية من ربه من أول أوقات وجوده فابتدأه بعنايته قبل سؤاله فعنايته بعد سؤاله أحرى ، ولأن تلك العناية الأولى تمهيد لما أراد الله به من الاصطفاء والرسالة .

وقد أبصر تاج القراء الفرق بين قوله هنا : ﴿ فَرَجَعْنَٰكَ ﴾ (طه:٤٠) وقوله في القصص ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ ﴾ (القصص:١٣) في نور سياق الملاطفة فيما يقول : معللا « لأن الرجع إلى الشيء والرد إليه بمعنى ، والرد على الشيء يقتضى كراهة المردود ، ولفظ الرجع ألطف فخص بطه وخص القصص بقوله : ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ ﴾ تصديقا لقوله : ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ »[1] .

وبعد التذكير بهذه المنن التي تلخص حياة موسى عليه السلام قبل الوحى حسبما ورد في الذكر الحكيم يقرر القرآن أن هذا اللطف من الله كان اصطناعا لموسى من الله لأجل الرسالة : ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ ﴾ (طه:٤٢) ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ (طه:٤٣) مدمجا في ذلك ما ترقى إليه الأسلوب بإجابة سؤله عليه السلام والذي يغريك بأن القصة في سياق الملاطفة والخشية هو اختصاص القصة هاهنا بقوله : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (طه:٤٤) ضعها إذن ثابت الفؤاد في نور قوله : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ (طه:٢،٣) وقارن ورودها هاهنا بورودها في سورة النازعات[2] تبصر ما فيها من نور السياق الذي نحاول استبيانه .

---

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن ، ص ١٣٨، ١٣٩ .

(٢) النازعات ١٧، ١٨، ١٩ .

وقد علل الأئمة في هذا النور للفرق بين قوله هنا : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ (طه:٥٣) وقوله في الزخرف : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ (الزخرف:١٠) وحسب تاج القراء أن ينبهنا إلى أن كلا جاء على أسلوب سورته فيما يقول : « لأن لفظ السلوك مع السبيل أكثر استعمالا به فخص به طه ، وخص الزخرف بجعل ازدواجا للكلام وموافقة لما قبلها وما بعدها »[1] وكان ابن الزبير ـ في بيانه للعلة ـ ناظرا إلى نور المطلع حسبما قرره كما نقلناه فقال : « فى آية طه مقصود بها التلطف بالدعاء إلى الله ـ عز وجل ـ على ما تقدم من أمره تعالى لموسى وهارون في قوله : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ . . . ﴾ فلما بنى الكلام على هذا ، وأعقب بقوله : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ . . . ﴾ ولا إشكال في أن هذا من التلطف والرفق في الدعاء ناسب العبارة بسلك عما أنهج تعالى من السبل والطرق وهي منبئة عما تعطيه جعل في الآية الأخرى مع زيادة الوضوح ، وكمال التهيئة فهي أنسب لما قصد في هذه السورة »[2] .

ألا ترى أن قوله : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ ﴾ (طه:٦٩) تنبهنا إلى أن خوف موسى كان ظنا بأنهم أوتوا من الخصائص ما أوتيه ساعة الوحي تناسبا مع قوله ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ (طه:١٧) بالنظر إلى قوله : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ (الأعراف:١١٧) وقوله : ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ ﴾ (الشعراء:٤٥) وبقرينة : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ (طه:٦٦) وقال ساعة الوحى : ﴿ فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ (طه:٢٠) ألا ترى سياق الملاطفة منورا لقوله : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ ﴾ ومؤانسا لفؤاد موسى عليه السلام .

---

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن ، ص١٣٩ .

(٢) ملاك التأويل للغرناطي ٨٢٤/٢ .

مع بصرنا بما تقدمه من قوله : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (طه:٦٨) لأنه وحى ﴿ مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾ (طه:٤) وقد عللوا لاختصاص السورة بتقديم هارون على موسى بأن ذلك وقع «للمبالغة في الاحتراز عن التوهم الباطل من جهة فرعون وقومه ، حيث كان فرعون رب موسى عليه السلام فلو تقدم موسى لربما توهم اللعين وقومه من أول الأمر أن مرادهم فرعون ، وتقديمه في سورة الأعراف تقديم في الحكاية لتلك النكتة .

وجوز أبو حيان أن يكون ما هنا قول طائفة منهم ، وما هناك قول أخرى ، وراعى كل نكته فيما فعل ، لكنه لما اشترك في المعنى صح نسبة كل منهما إلى جميع واختيار هذا القول هنا ، لأنه أوفق بآيات هذه السورة»[1] أى بسياق الملاطفة بإظهار المنة المتقابلة مع اختصاص القصة هاهنا بقوله : ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ (طه:٦٠) .

وقد ترجم القرآن عن مدى هذا الكيد ومنتهى هذا الغيظ بما عبر به فرعون في توعده السحرة باستخدام حرف الوعاء مكان حرف الاستعلاء ، تشبيها «لتمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعى في وعائه»[2] وكما قال أحد أهل العلم «تعبيرا عن شدة الأخذ وعدم الرحمة بالمصلوبين ، جاء حرف الوعاء دالا على أنهم سيشدون إلى الجذع شدا بالغ القوة والقسوة ، حتى ليكاد المصلوب يواريه الجذع ويشتمله»[3] ، لذا لم يوجد هذا الحرف في نظيريها في الأعراف والشعراء .

---

(١) روح المعاني ١٦/٢٣٠ .

(٢) الكشاف ٢/٥٤٦ .

(٣) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ص١٢٧، دكتور محمد الأمين الخضرى ، مكتبة وهبة .

وقد علل البقاعي في نور المقصود المجمل في المطلع لحذف لفظ (فرعون) في قوله : ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ ﴾ (طه:٧١) إذا ما قورن بما جاء في غير هذا الموضع[١] ـ بقوله : «ولما كان موسى عليه السلام هو المقصود بالإرسال إلى فرعون ، استأنف ـ تعالى ـ الإخبار عن فرعون عندما فجأه ذلك فقال : (قال) أى فرعون للسحرة منكرا عليهم ، وأضمر اسمه هنا ، ولم يظهره ـ كما في الأعراف ـ لأن مقصود السورة الرفق بالمدعوين والحلم عنهم ، وهو غير متأهل لذكر اسمه في هذا المقام»[٢].

ومما هو ظاهر المناسبة والتواصل بالمطلع مما اختصت به القصة قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ (طه:٨٣) فهو متواصل مع قوله : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ بقرينة ما قال في القرآن بعد في قوله : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ (طه:١١٤) ، وكان ذلك مما يسبب شقاء للنبى ﷺ كما بينه قوله ـ سبحانه ـ ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ (القيامة:١٦-١٩) وهو بمقارنته بقوله ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ ﴾ يبين خطر العجلة بالقرآن .

وترى نور سياق الملاطفة في قول هارون هاهنا : ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ (طه:٩٤) وقد جمعها الأمر بالملاطفة من قبل ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (طه:٤٤) وقد جاء في أسلوب الأعراف في سياق

---

(١) الأعراف ١٢٣، والشعراء ٤٩، وهو المتوافق مع ما في الشعراء إلا أنا نقلناه لبيان بصيرة البقاعي في النظر إلى المطلع .

(٢) نظم الدرر ٣١١/١٢ .

الإنذار والتذكير ـ وفيه تقارب مع هذا السياق ذاكرا قصة جر موسى لحية أخيه ، وكان قول أخيه هناك : ﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأعراف:١٥٠) وكثير من ألفاظ وأساليب السورة ينبهنا إلى وحدة هذا السياق ، ألا ترى أن قوله ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ (طه:١١٥) ينظر إلى قول موسى لبنى إسرائيل ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ (طه:٨٦) وكل ينظر إلى سياق الملاطفة في المطلع ، ويستأنس بقول البقاعي عند قوله ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ ... ﴾ فيما يقول : «ولما كان المقصود من السورة ـ كما سلف ـ الإعلام بالحلم والأناة والتلطف بالنائي والقدرة على المعرض ، ذكر فعلة آدم عليه السلام في هذه السورة بلفظ المعصية مع التصريح بأنها على وجه النسيان ، وذكر ذلك أولا مجملا ثم أتبعه تفصيله ، ليكون ذلك مذكورا مرتين ، تأكيدا للمعنى المشار إليه»[1].

ومما هو ظاهر المناسبة بما جاء في قصة موسى ، وكل متواصل مع المطلع قوله : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ (طه:١٣٠) وهو ينظر إلى قول موسى : ﴿ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ (طه:٣٣، ٣٤) الذي ينظر إلى الوحى ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ (طه:١٤) وهو ناظر إلى المطلع كما سبق بيانه ، وكذلك قوله : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ﴾ (طه:١٣٢) وهو أمر بملاطفة المدعوين والترفق بهم ، على الوجه الذي أمر به موسى عليه السلام : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ (طه:٤٤) .

---

(١) نظم الدرر ١٢/٣٥٥ .

ثم عرض شيئا مما كان يسبب شقاءه وبعد سياق الملاطفة ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (طه:١٣٣) ، «ووجه اختيار الصحف هنا على الكتب أن في كل صحيفة من الكتب علما ، وأن جميعه حواه القرآن فكان كل جزء من القرآن آية ودليلا»[١] .

وقد عرض قصة موسى عليه السلام بكل أحداثها ، والحدث الذي لم يفصله ذكر من الألفاظ ما يشير إليه في مواضعه في الذكر الحكيم ، يستأنس لذلك مثلا بقول الزمخشري عند قوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ (طه:٧٩) ، فيما يقول : قوله : ﴿ وَمَا هَدَىٰ ﴾ «تهكم به في قوله : ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ »[٢] يشير ـ رحمه الله ـ إلى ما في سورة غافر ، وزاد ابن عاشور إلى أنه تلميح إلى ما في هذه القصة من قوله : ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ (طه:٦٣) ثم يقول : «فيكون من التلميح إلى لفظ دفع في قصة مفضيا إلى التلميح إلى القصة»[٣] وذلك يرجح ما رآه من نكتة التعبير بالصحف .

ثم ختم السورة بما يرفع الحرج والشقاء عن النبي ﷺ ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم . . . ﴾ (طه:١٣٤، ١٣٥) فنظر بذلك إلى المطلع ، وكانت تراكيب السورة تتشارب من ماء واحد كما حاولنا استبيانه ، وقد علق السيد الألوسي عند الخاتمة بقوله : «وما أشد مناسبة هذه الخاتمة للفاتحة ، وقد ذكر الطيبي أنها خاتمة شريفة ناظرة إلى الفاتحة ، وأنه إذا لاح أن القرآن أنزل لتحمل تعب الإبلاغ ولا تنهك نفسك فحيث بلغت وبلغت جهدك فلا

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/٣٤٥ .

(٢) الكشاف ٢/٥٤٧ .

(٣) التحرير والتنوير ١٦/٢٧١، ٢٧٢ .

عليك ، وعليك بالإقبال على طاعتك قدر طاقتك وأمر أهلك ، وهم أمتك المتبعون بذلك ، ودع الذين لا يتجمع فيهم الإنذار ، فإنه تذكرة لمن يخشى ، وسيندم المخالف حين لا ينفعه الندم»[1] .

وقال ابن عاشور عند الخاتمة : «ومن محاسنها أن فيها شبه رد العجز على الصدر ، لأنها تنظر إلى فاتحة السورة وهى قوله : ﴿ **مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ** ﴾ لأن الخاتمة تدل على أنه قد بلغ كل ما بعث به من الإرشاد والاستدلال ، فإذا لم يهتدوا به فكفاه انثلاج صدر أنه أدى الرسالة والتذكرة ، فلم يكونوا من أهل الخشية»[2].

وما حاولناه في السورة كان اهتداء ببصائر الأئمة .

فلله الحمد على ما وفق .

* * *

(١) روح المعاني ٢٨٧/١٦ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٤٩/١٦ .